

دراسات في الإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
المتاهة

أدب القرآن

بمقلم
الأستاذ فؤاد شاكر

العدد التسعون

اهداءات ٢٠٠٢

ا/ محمد مصطفى بيومي
القاهرة

دراسات في الإسلام
يُصدرها
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
الطبعة

أدب القرآن

بقلم
الأستاذ فؤاد شاكر

يشرف على إصدارها
محمّد توفيق عويضة



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

« مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »

صَلَّى اللّٰهُ الْعَظِیْمِ

تمهيد

أسباب تأليف هذا الكتاب - اتساع مذاهب البحث -
أدب العلم وأدب النفس - الأحكام التشريعية في القرآن -
اغفال المسلمين لمصدر سعادتهم - القرآن مصدر سعادة البشر
- تعريف السعادة والطريق الموصل إليها - آداب المسلمين
في حياتهم اليومية من القرآن - معاملاتهم الحقوقية .

ظن بعض أصدقائي ، الذين سمعوا بعنوان هذا الكتاب ،
قبل قراءة موضوعه - أدب القرآن - اننى عنيت ببحث أدب
العلم ، لا أدب النفس ، اذ من المفهوم أن كلمة الأدب تؤدي
هذين المعنيين ، كالتعبير الذى اصطلح عليه ، فادب العلم ، الذى
هو علم الأدب ، غير أدب النفس ، الذى هو حلية النفس وطابعها
في مكارم الأخلاق ، وظنوا اننى عنيت ببحث أدب القرآن ، من
ناحية العلوم الأدبية وفنونها فتعرضت لما فى القرآن من بلاغة
وفصاحة ، ولغة ونحو ، وصرف وقواعد وما الى ذلك من ضروب
البيان وأبوابه الواسعة ، فلما سئلت فى ذلك أجبت : بأن أدب

القرآن من هذه الناحية ، انما هو موضوع يهم الخاصة من رجال العلم والفضل ، والمتعلقين بالبحث والتمحيص ، للوقوف على ما فى القرآن الكريم من بلاغة وفصاحة وبيان ، وما ورد فيه من غريب اللغة ومفرداتها وقواعدها ، فهو يهم من هذه الناحية طائفة خاصة من طبقات الناس بل من صنفوة طبقاتهم المتعلمة التى تفهم معنى هذه الابحاث حق فهمها ، فالبحث اذا فى الموضوع من هذه الناحية المحدودة هو فى نظرى بحث محدود الفائدة بحدود قرائه وقلتهم فى كل أمة من الأمم العربية والاسلامية لانه من المفهوم أنه ليس كل الناس وليس سواد الشعوب وجمهرة الأمم من التعليم العالى بالدرجة التى تخول لهم فهم هذه الابحاث حق فهمها .

وبالتالى ، فان فصاحة القرآن الكريم وبلاغته ، وما فيه من ضروب البيان ، كل ذلك شىء تناقلته الالسنه وحفلت به المؤلفات وحفيت فيه أقلام الكتاب من فطاحل العلماء ، منذ العصر الذى نزل فيه القرآن الى اليوم ، فى كل أمة وكل زمان . فالكتابة فيه ليست بجديدة فى موضوعها ، وموضوعها ليس بمجهول من أولئك الجيلة من العلماء المبرزين ، والفطاحل المؤلفين ، الذين عالجوا هذه الابحاث فى مؤلفات ضخمة حفلت بها المكاتب العربية وعرفت لجميع المتأدين وتداولتها أيديهم وأبصارهم وأذنانهم .

وقد خلصت من هذا الى تقرير : أن الناحية العلمية فى القرآن ، انما هى ناحية لا يفهمها - حق فهمها - الا تلك الطائفة الجليلة من العلماء * من الذين يؤهلهم تعليمهم ومؤهلاتهم العلمية والذهنية الى استساعة معانيها وقواعدها *

أما الناحية الأخرى التى قصدت اليها من تأليف هذا الكتاب ، فهى الناحية الأوسع انتشارا ، والتى يستطيع كل فرد متعلم تعليما عاديا أن يفهمها ، والتى هى تهتم كل فرد من أبناء البشر ، لأنها الناحية المتعلقة بالانسان فى حياته اليومية ، فيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين والديه اللذين هما أقرب الناس اليه ، وفيما بينه وبين ذوى قرباه وذوى رحمه ، وفيما بينه وبين الناس بصفة عامة ، وما يدخل فى ذلك من حقوق ومعاملات ، وآداب خاصة وعامة ، وشئون اجتماعية وأخلاقية ، وعمرانية واقتصادية وآداب الانسان فى معايشة أهله ومعايشة غيرهم من الناس ممن تضطره ظروف الحياة وملابساتها الى الاحتكاك بهم فى غدواته وروحاته *

بل لم يقتصر القرآن الكريم على ذلك ، فتعرض لأدق شئون الانسان فى حياته الخاصة ، كآداب الاستئذان فى الأسرة ، وآداب الاستئذان فى دخول البيوت ، وآداب التفسح فى المجالس ، وما الى ذلك من الشئون الخاصة المتعلقة بأخلاق الناس وآدابهم ، مما يجده القارىء مفصلا فى كتابنا هذا *

والقرآن الكريم أوسع من أن يحده بيان أو مؤلف أو مؤلف .
مهما أوسعت الصفحات وسمت المدارك وتنبهت العقول . وقد حفل
بجميع شئون الخلق في عباداتهم ، وفي معاملاتهم وفي جميع
أحوالهم الخاصة والعامة كما أسلفت القول ، وبدا لي أن في
القرآن من هذه المواضيع جميعا ما لو حاولت تفصيله أو
التعرض له بالإشارة لاستوعب منى مجلدات ضخمة وزمنا
لا يحيط به العمر المحدود . علاوة على أن ذلك التفصيل بجملته
يكون موضوعا عاما يخرج بي عن نطاق الفكرة التي حددتها في
تأليف هذا الكتاب ، أو على الأصح ، الفكرة التي بعثتني على
تأليفه بهذه الصورة .

فالأمة الإسلامية الصحيحة ، انما قامت في حياتها العمامة
والخاصة ، على أساس القرآن الذي هو هاديتها المرشد الى كل
شأن جليل أو ضئيل من شئون حياتها . وقد كان الأمر كذلك
في فجر الاسلام وضحاها ، وقول — في فجر الاسلام وضحاها
لأن كثيرا من الأمم الاسلامية تحللت بعض التحلل من بعض
تعاليم القرآن والاسلام ومبادئها وأخذوا يعملون ويسيروا على
قواعد عرفية وعقلية زعموا أنها ملائمة لعصورهم الحاضرة وما
اقتضته من تطور ، وهم في ذلك جد واهمين ، ففي فجر الاسلام
وضحاها ، أي في زمن الرسالة المحمدية وعهد الخلفاء الراشدين
والصحابية ، كان القرآن هو القاموس الوحيد لمعاجم هذه
الحياة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم هو مرجعهم فيه مسددة

حياته . ثم كانت أحاديثه الصحيحة الثابتة ، مرجعهم بعد وفاته
فى أنظمة حياتهم ومعاملاتهم وشؤونهم من عامة وخاصة .

فالفكرة التى رعى اليها مؤلف هذا الكتاب ، هى انه نظر
الى القرآن الكريم نظرة اجلال واكبار واحترام ، بعد أن اشربت
نفسه حب القرآن وبعد أن وفقه الله الى دراسته دراسة عميقة ،
والوقوف على كثير من معانيه السامية الحكيمة . وقد رأى
المؤلف أن فى القرآن الكريم من شتى المواضيع ما أصبح دستوراً
عاماً للأمم الاسلامية وأصبح نظاماً حكومياً دينياً ودنياً يجب أن
تسير بموجبه الأمم الاسلامية وتطبقه الحكومات التى لها الولاية
على المسلمين ، كأحكام القصاص واقامة حدود الله وتوزيع
العدل بين الناس بواسطة الهيئات الحاكمة وشؤون التوريث
وأموال النكاح وما الى ذلك من الأمور التى يرجع أمر تنفيذها
الى السلطات الحاكمة . فلم يتعرض المؤلف لهذه الناحية من
نواحي القرآن على اعتبار انها ناحية يرجع أمر تنفيذها عملياً الى
الهيئات الحاكمة كما قلنا وهى مسائل تشريعية لم يعد أمرها
حافياً على أحد من الناس لانها من قواعد دينهم الذى يسرون
عليه ، سواء عملوا بها أو لم يعملوا .

ورأى المؤلف فى القرآن ناحية أخرى هى ناحية الفرائض
والعبادات والأمور المتعلقة بطاعة العبد لربه كالصلاة والزكاة
والصوم والحج ، وهذه الناحية لم يتعرض لها المؤلف لأن ما كتب
فى موضوعها قديماً وحديثاً لم يترك مجالاً لكاتب أو لقائل ،

ولأن كل مسلم أصبح بفطرته أو بأبسط ما يتلقنه من القواعد أو المعلومات ، ملما بأركان دينه عارفا لها سواء عمل بها أو لم يعمل .

وانما الرأى الذى أخذ على المؤلف مذاهب تفكيره ، هو انه استشف من أسرار القرآن ، الناحية التى يقرأها الناس ولا يلقون بالهم اليها ، وهى الناحية التى يمكن الاستفادة منها استفادة عملية فى كل شئون الناس فى حياتهم اليومية ، وأعنى بها الناحية التى تتعلق بحياة الناس فى أعمالهم وعلاقاتهم ببعضهم وآدابهم العامة والخاصة ، ومكارم الأخلاق ومعاملاتهم الأدبية والمادية وما يتعلق بالمحافظة على صحتهم وعلى ثروتهم وعلى سعادة الأسرة وعلاقات الآباء بالأبناء وعلاقاتهم بذوى قرباهم وتبادل العطف والمحبة والمواساة بين بعضهم البعض ورفع مستوى الأخلاق وترقية حالتهم الاجتماعية والخلقية وكل ما يؤدي الى سعادتهم وهنائهم ورفاهيتهم .

هذه الناحية الاجتماعية الأخلاقية العمرانية ، التى هى أساس الحياة اليومية لكل الناس ، هى الناحية التى ملكت مذاهب الرأى على المؤلف ، بعد أن استشف من قواعد المرسومة فى القرآن ما ينهض بها الى أرفع أوج يشهد بعظمة الدين الاسلامى وينطق بعظمة القرآن ويأنه كتاب منزل من لدن الحكيم الخبير ، الذى هو عالم بسر خلقه ، وبسر طريق السعادة التى هم عنها فى ضلال مبين ، وقد استهوت المؤلف هذه الفكرة ، فعمل جاهدا على اخراجها الى حيز الوجود ، وذلك باقتناء الآيات الحكيمة

التي حفل بها القرآن في هذه المعاني ، وتقديمها الى القراء في ثوب من البساطة يسهل معه فهمها ، وفهم الاغراض التي رمت اليه من اسعاد البشر ، فهو سبحانه وتعالى في غنى عن عباده وعن عبادتهم والذبايح التي تذبح تقربا اليه لن يناله دماؤها ولا لحومها وانما هي مبادئ سامية ترمى الى تقرير أشرف الأغراض وأنبى الغايات .

وقد اتسعت مذاهب البحث وتشعبت مسالكه على مؤلف هذا الكتاب عندما حاول اخراج فكرته من حيز التفكير الى حيز التنفيذ لأن النظريات تختلف عن العمليات ، اذ اجتمعت لديه طائفة من آى الذكر الحكيم فى هذه المواضع وفى المواضيع المتصلة بها ما لو أراد مجازاة رغبته الملحة فى تتبعها وتقصيها ، ثم تتبع شروعاتها وتقصيها ، لنفد العمر دون الوصول الى غايته ، لغزارة البحث وسعته ، وعمقه ، وهنا لم يجد بدا من الاقتصار على ما وصل اليه جهده المحدود الضئيل مقتنعا بالمساهمة فى الدعوة الى الله بما آداه من واجب فى دائرة الحد الذى وفق اليه ، مواصلا البحث فى الموضوع الذى هو بسبيله على ماتتبع له الحياة من مدى ، سائلا الله أن يلهمه التوفيق فيما هو فيه من مواصلة الجهد لاكمال تحقيق الفكرة التي يعمل لاتمامها فى كتاب آخر يتصل بموضوع هذا الكتاب .

وغاية ما أرجوه اذا ، هو أن أكون قد ساهمت فى الدعوة الى الله ، واناارة الطريق الى الحق ، وقيادة الناس الى سبيل سعادتهم

الدينية والدينية ، لانتى شديد الاعتقاد ، بأن الناس لو اتبعوا
أوامر دينهم وأحكام قرآنهم ، وما جاءهم فيه من الحق ، لساروا
على النهج المؤدى بهم الى السعادة الكاملة التى يشهدونها وهى
بين أيديهم ، فقد طالما كتب كتاب الشرق والغرب ، وبحثوا طويلا
، وضعوا أئمن الجوائز وأغلاها لمن يدلهم على السعادة ولم يعرفهم
ما هى وأين طريقها . وقد كتبوا فى ذلك كثيرا وطويلا . وأكثر
من خاض هذا الموضوع لم يوفق الى تعريف السعادة أو ما هو
الطريق الموصل اليها .

أما تعريف السعادة فى رأى كاتب هذه السطور ، فهو أنها
هى الحياة الطيبة المشمولة بهدوء البال فلا يكدر صفوها من
الحوادث الانسانية مكدر ، كأن تكون متمتعاً بالصحة الجيدة
والمعيشة الهادئة آمنة من الخصومات بينك وبين غيرك من الناس
على صلة طيبة بجميع من تحب ، حائزا لرضاء ربك وذويك فى
سطة من العيش . وهذه الامور لا يمكنك أن تتوفر على اقتنائها
الا من طريق الدين ، وطريق الدين الذى نعنيه هو اطاعة أوامر
ربك واتخاذ القرآن الكريم اماما لك وبراسا تقتدى به وتهتدى
بهدهاه ، فى كل ناحية من نواحي حياتك سواء العامة والخاصة
وسواء الدينية منها أو الدنيوية ، فاذا انت فعلت ذلك بحق
واخلاص ، واتبعت ما جاء فى القرآن بهذا الصدد ، أمكنك أن
تصل الى طريق السعادة المنشودة وغيرك يتخبط فى طريقه .
يلتس اليه النور فلا يعرف مصدره العظيم ، فكتاب أدب القرآن

إذا ، هو النبراس المضيء أمامك هذا الطريق ، بله نفسه الطريق
المؤدى بك الى السعادة الحقيقية فى دنياك وآخرتك ، ولعلمى
حين أصف كتابى بهذا التعبير أكون قد مدحته فى نظر من
يقراءون هذه الجملة ؛ وليس من المتعارف أو المتواضع عليه أن
بمتدح مؤلف تتاج فكره ، ولكننى فى الواقع أمتدح كتابى .
بملاء ماضغى فخرا وبكل ما فى من قوة ، وأدعو الله أن يثينى
عليه كل المثوبة ، وأن يهدى به خلقا كثيرا . وذلك لسو
موضوعه وسمو فكرته ، وانه مستمد من كلام الله سبحانه
وتعالى ومن تعاليم دينه الحنيف ، وأوامر قرآنه الكريم ، وحسبه
انه « أدب القرآن » وكفى .

والله الموفق .

الباب الأول في الشؤون الأخلاقية

- ١ - النهي عن الظن السوء والغيبة
- ٢ - الأمر بالحسنى
- ٣ - تحريم السخرية والاستهزاء
- ٤ - النهي عن الغضب وما يجبر إليه
- ٥ - مكارم الأخلاق
- ٦ - النهي عن شح النفس

النهي عن الظن السوء والغيبة

قال الله تعالى في محكم تنزيله :

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أوجب أحدكم أن ياكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه • واتقوا الله ان الله تواب رحيم » •

جاء في تفسير هذه الآية ما يأتي :

يقول الله ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله ، لأن بعض ذلك يكون اثما محضا ، فليتجنب كثير منه احتياطا وروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب انه قال « ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن الا خيرا وانت تجد لها في الخير محملا » • وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاسناد عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة « اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا » وقال الطبراني باسناده عن حارثة بن النعمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث لازمات لامتى : الطيرة والحسد وسوء الظن »

فقال رجل وما يذهبهن يا رسول الله من هن فيه ، قال صلى الله عليه وسلم « اذا حسدت فاستغفر واذا ظننت فلا تحقق واذا تطيرت فامض » ، وقال سفيان الثوري عن راشد بن سعد عن معاوية قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « انك ان اتبعت عورات الناس افسدتهم او كدت ان تفسدهم » (ولا تجسسوا) أى على بعضكم بعضا والتجسس غالبا يطلق فى الشر ومنه الجاسوس أما التجسس فيكون غالبا فى الخير كما قال عز وجل اخبارا عن يعقوب انه قال (يابنى اذهبوا فتجسسوا من يوسف وأخيه) وقد يستعمل كل منهما فى الشر كما ثبت فى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ولا تجسسوا ولا تحسسوا .. الخ » والتجسس البحث عن الشيء والتجسس الاستماع الى حديث القوم وهم له كارهون *

وقوله تعالى « ولا يغتب بعضكم بعضا » فيه نهى عن الغيبة وقد فسرها الشارع كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود، قيل يا رسول الله ما الغيبة ، قال (ذكرك أخاك بما يكره) قال أفرأيت ان كان فى أخى ما أقول قال صلى الله عليه وسلم (ان كان فيه ما تقول فقد اغتبتته وان لم يكن فيه ما تقول فقد بهتته) وجاء فى الاثر أن امرأة دخلت على عائشة فلما قامت لتخرج أشارت عائشة رضى الله عنها للنبي بيدها — أى أنها قصيرة ... فقال النبي (اغتبتيها) والغيبة محرمة بالاجماع ولهذا شبهها الله تعالى بأكل لحم الميت وهذا من التنفير والتحذير منها كما

قال صلى الله عليه وسلم يصف العائد في هبته انه (كالكلب
يقىء ثم يرجع في قيئه) وثبت في الصحاح وغيره انه قال صلى
الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع (ان دماءكم وأموالكم
وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في
بلدكم هذا) وورد أيضا أنه قال : (كل المسلم على المسلم حرام
ماله وعرضه ودمه حسب امرىء من الشر ان يحقر أخاه المسلم) •

وقد وردت أحاديث كثيرة لا تحصى بأسانيد شتى في مختلف
كتب الاحاديث كلها في موضوع الغيبة لا يتسع النطاق هنا
لحصرها وسردها كما وردت أقوال مأثورة من كافة الصحابة
والخلفاء الراشدين وغيرهم في ذمها واستقباحها ، والآية القرآنية
صريحة الدلالة على الغرض الذي يرمى اليه المشرع الأكبر سبحانه
وتعالى من تحريم هذه الخلعة الذميمة والنهي عنها واجتنابها لما فيه
من الأذى الذي يحقق بينى الانسان من وراء انتشارها وذيوعتها
بين الناس •

والواقع ان هذه الآية الكريمة نبهت الى كثير من الأشياء
التي يتواتر وقوعها بين الناس فى كل لحظة من لحظات حياتهم ،
والتي هى من أسباب الفتن بينهم والتنافر والبغضاء ، فأمر
سبحانه وتعالى باجتنب كثير من الظن لأن بعض الظن اثم ونهى
عن التجسس والاعتياب وجعل الغيبة مثل أكل لحم الميت مبالغة
فى التنفير منها وتحقيرها والتحذير عنها ، فليتدبر المسلمون هذه
المعانى السامية ان كانوا للحق متبعين •

الأمر بالحسنى

كثيرا ما تكون كلمة صغيرة : سببا فى ايقاد نار عداوة
وبغضاء بين فريقين متحايين ، أو بين فريقين متصادقين ، وذلك
مشاهد وملموس فى كل مجتمع من المجتمعات العالمية ، بل
لا تعالى اذا قلنا : رب كلمة أثارت حربا أو لاجابة سببت ضربا .
وقد أثبتت الحوادث الجارية المتعاقبة بتعاقب الملون وكه
الجديدين ، ان كثيرا من مشاكل الافراد والجماعات أحدثتها
كلمة نائية . أو لاجابة جافة ، ولم يقف الأمر عند حد الملاحاه
والتراشق وانما يتعداه الى سفك الدماء وايجاد الضغائن ونوتر
القلوب بالتررة والبغضاء .

والقرآن الكريم ، عمل بما فيه من حكمة سامية على اجتناب
هذا الداء من أصله ، لو التفت اليه المسلمون وعملوا به .
يقول الله تبارك وتعالى « وقل اعبادى يقولوا التى هى
أحسن ان الشيطان ينزغ بينهم ان الشيطان كان للانسان عدوا
مبيناً » .

وفى تفسير هذه الآية يقول المفسرون :

(يأمر الله تبارك وتعالى عبده ورسوله ، ان يأمر عباد الله
المؤمنين أن يقولوا فى مخاطباتهم ومجاوراتهم الكلام الأحسن

والكلسة الطيبة) فانهم ان لم يفعلوا ذلك نزع الشيطان بينهم
وأخرج الكلام الى الفعال ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ، ولهذا
نهى أن يشير الرجل الى أخيه المسلم بحديدة فان الشيطان ينزع
فى يده ، أى فربما أصابه بها وجاء فى الحديث عن أبى هريرة
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال « لا يشيرن أحدكم
الى أخيه بالسلاح فانه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزع فى
يده فيقع فى حفرة من النار) .

وجاءت أحاديث أخرى فى مثل هذا المعنى لا تعد ولا تحصى
والخلاصة المستفادة من كلام الله ، ومن كلام نبيه الكريم ، ان
الانسان يجب أن ينزع الى القول بالتي هى أحسن ، واستعمال
المعروف مع الناس بدل العداوة والشحناء ، وتجنب السفه فى
الملاحاة التى لا تؤمن ، مغبتها ولا يتقى شرها .

فلو توفر الناس على اتباع هذه الحكمة العالية ، لسلكوا
سبيلا من السبل المؤدية الى سعادتهم فى دنياهم ، ذلك علاوة
على مشوبة الله التى يجزى بها عباده المخلصين فى كل عمل من
أعمال الاحسان فتجتمع لهم مغفرة الله ورضوانه وجزيل ثوابه ،
مع سعادة الدنيا ومع صفاء الود وحسن المعاشرة بين الاخوان من
أفراد وجماعات ودفع المكروه والعداوة بينهم .

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره »

تحريم السخرية

والاستهزاء والمنافسة بين الناس

قال الله تعالى فى كتابه الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » *

هذه الآية الكريمة ، تتعلق بموضوع خطير يتناول الناس فى حياتهم اليومية ، وفى بيئاتهم المختلفة ، الكبار منهم والصغار الرجال منهم والنساء لأنه يمس ناحية من نواحي الأخلاق العامة الشائعة بينهم ، ويتناول ما يقع بينهم فى كل وقت ولحظة فكثيرا ما تكون السخرية أو الاستهزاء أو المنافسة أو اللمز ، سببا خطيرا من أسباب التباغض والتحامل والشقاق والشحناء ، بل سببا من أسباب الفتنة بين الناس ، وما تؤدي اليه الفتنة من شر مستطير . *

فلنذكر ما جاء فى التفسير خاصة بهذه الآية ، قال المفسرون :
ينهى الله تعالى عن السخرية بالناس أى احتقارهم والاستهزاء بهم كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

انه قال (الكبر بطر الحق وغمص الناس - ويروى - وغمط الناس) والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم وهذا حرام فانه قد يكون المحققر أعظم قدرا عند الله تعالى وأحب اليه من الساخر منه المحققر له ولهذا نزلت الآية فنص على نهى الرجال وعطف بنهى النساء *

وقوله تعالى « ولا تلمزوا أنفسكم » أى لا تلمزوا الناس والهماز اللزاز من الرجال مذموم ملعون كما قال تعالى « ويل لكل همزة لمزة » والهمز ما يكون بالفعل ، واللمز ما يكون بالقول * كما قال تعالى « هماز مشاء بنميم » أى يحتقر الناس ويهزهم طاغيا عليهم ويمشى بينهم بالنميمة وهى اللمز بالمقال ولهذا قال « ولا تلمزوا أنفسكم » كما قال « ولا تقتلوا أنفسكم » أى لا يقتل بعضهم بعضا *

وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما « ولا تلمزوا أنفسكم » أى لا يطغى بعضهم على بعض *

وقوله تعالى « ولا تنازروا بالألقاب » أى لا تداعوا بالألقاب وهى التى يسوء الشخص سماعها *

وخلاصة هذه الآية الكريمة انها تحرم على الناس السخرية من بعضهم والاستهزاء ببعض ، وقد قال الشاعر :

تري الرجل الضعيف فتزدرية
وفي أثوابه أسد همسور
ويعجبك الطير فتزدهيه
فيخلف ظنك الرجل الطير
كما حرمت على الناس التناز باللقاب ولمز أنفسهم • فهل
سمع الناس وهل وعوا •

النهي عن الغضب وما يجبر اليه

قال الله تعالى في كتابه العزيز :

« والكاذبين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب
المحسنين » .

جاء في تفسير هذه الآية الكريمة ما يأتي :

أى اذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه ، فلم يعملوه
وعفوا مع ذلك عن أساء اليهم وقد ورد فى بعض الآثار «يقول
الله تعالى : يا ابن آدم اذكرنى اذا غضبت فلا أهلكك فيسن أهلك »

وقد ورد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:
« ليس الشديد بالصرعة (١) ولكن الشديد الذى يملك نفسه
عند الغضب » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما تعدون
الصرعة فيكم) قلنا الذى لا تصرعه الرجال قال (ولكن الذى
يملك نفسه عند الغضب) وقال (الصرعة كل الصرعة الذى
يغضب فيشتد غضبه ويحمر وجهه ويقشعر شعره فيصرع غضبه)

وقال الامام أحمد حدثنا ابن نمير عن الاحنف بن قيس عن
عم له يقال له حارثة بن قدامة السعدى انه سأل رسول الله صلى

الله عليه وسلم فقال يا رسول الله قل اى قولاً ينفعنى وأقلل على لعلى أعيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تغضب) فأعاد عليه حتى أعاد عليه مرارا كل ذلك يقول لا تغضب .

وورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه ملأ الله جوفه أمنا وإيمانا) .

والعافين عن الناس ، أى مع كف الشر يعفون عن ظلمهم فى أنفسهم فلا يبقى فى أنفسهم موجدة على أحد وهذا أكمل الأحوال ولذا قال (والله يحب المحسنين) فهذا من مقامات الاحسان .

هذا بعض ما ذكره المفسرون فى شرح الآية وبعض ما أوردوه من الأحاديث الكريمة فى النهى عن الغضب ، والأحاديث كثيرة . أما فى الواقع المشاهد فان الغضب شعبة من الجنون وقطعة منه . فكم من الجرائم الدامية يرتكبها الشخص تحت تأثير الغضب وكم من الأفعال المخزية تصدر عن الانسان وهو فى حالة الغيظ حتى اذا ما هدأ وزالت عنه سورة الشر ، عاد فعرض بنان الندم ألف مرة على ما فرط منه فى غضبه ، وقد يقع منه أحيانا بعض الأشياء التى لا يمكن تداركها ولا يصلحها الاعتذار .

ومهما أردنا أن نتوسع فى هذا الباب ، فانه لا يسكننا أن نحيط بمقدار الشرور الأثيمة التى يكون الغضب سببها الأول ، والباعث عليها ، ذلك بأن الكثرة الغالبة من جرائم المجتمع

الانسانى لو عمل لها احصاء دقيق لردت الى باعث واحد ، هو
جموح النفس فى ثورتها وترك قيادتها لاهواء الشر حيث تطوح
بها الى مالا يعلمه الا الله من العواقب الوخيمة السيئة .

وفى رأينا أنه لا يمكن أن يقع حادث سىء ترتكب فيه جناية
أو معصية ، الا ونفس صاحبه تكون مشربة بالغضب فالانسان
لا يرتكب عملا اذا الا اذا استنفز اليه بأى دافع من الدوافع حسب
أسبابه وظروفه وهذا الاستفزاز الذى قد تولده أى الأسباب
هو نفسه الغضب أو الذى يوجد الغضب فى النفس فاذا وجد
ثار بالنفس وسول لها السوء وزين لها ما هى بسبيله من معصية
أو اعتداء ، وذلك بخلاف ما اذا امتلك الانسان نفسه وراجعها
وراضها ، وحملها على كظم الغيظ فهناك تحمد المغبة ويزن
الانسان نفسه ويملك أعصابه فينظر الى ما هو واقع بين يديه
بنظر الحقيقة الصافية المجردة عن زخرف اغراء الغضب واغوائه
ان صبح هذا التعبير — ويثوب الى رشده فلا يقع فى محذور
أو مكروه ولا يسىء ولا يساء .

ومن أكمل صفات مكارم الأخلاق بعد ذلك أن يعفو المقتدر،
بعد أن يكظم غيظه ، لا أن يعفوا غير المقتدر ، لأن شرط العفو
هو كما قال المتنبي :

كل حلم أتى بغير اقتدار
حجة لاجيء اليها اللئام

مكارم الأخلاق

يمدح الله بها نبيه

قال الله سبحانه وتعالى لنبيه في القرآن الكريم :

« وانك لعلى خلق عظيم » *

آية قصيرة من القرآن بل جملة تتألف من أربع كلمات فقط. ولكنها تحوى فى مجموعها أكبر المعانى وأسمائها ، وأجدرها بالامعان والتقدير ، ونحن نجمل لك معناها فى ايجاز ، لانه ليس من المستطاع ولا فى مجلد كهذا أن نعرض بالتفصيل لأخلاق سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم فالقرآن الكريم وصفه اجمالا بأبلغ وصف جامع ، فقال : « وانك لعلى خلق عظيم » وعائشة رضى الله عنها سئلت عن أخلاق النبي فأجابت باجابة موجزة تمثل فيها كل معنى البلاغة وتشتل على كل ما يذهب اليه التفصيل من اسهاب ، أجل + لقد سئلت عائشة عن أخلاق النبي ، فقالت انها « القرآن » وحسبك بهذه الاجابة *

قال الامام أحمد حدثنا أسود بسنده عن رجل من بنى سواد قال سألت عائشة عن خلق رسول الله ، فقالت أما تقرأ القرآن « وانك لعلى خلق عظيم » قال قلت حدثيني عن ذلك ، قالت صنعت له طعاما وصنعت له حفصة طعاما فقلت لجاريتى اذهبي

فان جاءت هي بالطعام فوضعتة قبل فاطر حى الطعام ، قالت فجاءت
بالطعام قالت فألقت فوقعت القصة فانكسرت وكان نطم فجمعه
رسول الله . الحديث .

وفى روايات كثيرة ان عائشة سئلت عن خلق رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقالت هو القرآن ، ومعنى هذا انه عليه
الصلاة والسلام صار امثال القرآن أمرا ونهيا وسجية وخلقنا
لطبعه فسا أمره القرآن فعله وما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبله
الله عليه من الخلق العظيم من الجياء والكرم والشجاعة والصفح
والحلم وكل خلق جميل كما ثبت فى الصحيحين عن أنس انه قال:
خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لى أف قط ولا قال لشيء
فعلته لم فعلته ولا شيء لم أفعله : ألا فعلته .

وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق معمر عن الزهري عن
عروة عن عائشة قالت : ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم
بيده خادما قط ولا ضرب امرأة ولا ضرب بيده شيئا قط الا أن
يجاهد فى سبيل الله ولا خير بين شيئين قط الا كان أحبهما اليه
أيسرهما ، حتى يكون اثما فاذا كان اثما كان أبعد الناس من
الاثم . ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى اليه الا أن تنتهك حرمت
الله فيكون هو ينتقم لله عز وجل ، وعنه صلى الله عليه وسلم انه
كان يقول « خياركم أحسنكم أخلاقا » وعنه انه قال « بعثت
لأتمم مكارم الأخلاق » وورد عن أنس قال كنت أمشى مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد فجرانى غليظ الحاشية فأدركه

اعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة ورجع النبي في نحر الاعرابي حتى نظرت الى صفحة عاتق الرسول فاذا قد أثرت بها حاشية البردة ثم قال يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت اليه رسول الله ثم ضحك ثم أمر له بعتاء .

وعن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان أثقل شيء يوضع في ميزان المؤمن يوم القيامة خلق حسن وان الله تعالى يبغض الفاحش البذيء » وقال أيضا لأصحابه « أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس النار . قالوا الله ورسوله أعلم . قال فان أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان الفرج والنهم . أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس الجنة . قالوا الله ورسوله أعلم . قال فان أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق » .

وعن عائشة قالت سمعت رسول الله يقول « ان المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار » .

وخلاصة ما نختم به هذا الباب ، أن مكارم الأخلاق هي أفضل تاج يضعه الانسان على رأسه بعد تاج الاسلام بل ان الاسلام قائم على مكارم الأخلاق كما هو ثابت من القرآن الكريم ، وحسبك أن تعلم أن أخلاق النبي الكريم التي مدحها الله ، انما هي أخلاق القرآن لأنه تأدب به ومنه . فليعتبر المعتبرون .

النهي عن شح النفس وما يؤدي اليه

طبع الله سبحانه وتعالى النفس الانسانية على صور مختلفة من الغرائز فركب فيها الخير والشر ، ووهبها قبسا وهاجا بل شعلة نيرة كى تضيء بها المحججه . وتستوضح السبيل ، وقد قرن الله سبحانه وتعالى التكليف بذلك القبس الذى وهبه لعباده، فمن اثم عليه نعمته به الزمه بما الزم به خلقه من العبادة والطاعة، ومن حرمه منه أسقط عنه الواجبات بسقوطه .

ونظن أن القارىء فى غنى عن أن تقول له ان ذلك القبس الذى نشير اليه ، ليس هو سوى « العقل » الذى أنعم الله به على عباده فجعلهم بنعمته يستطيعون التمييز بين الخير والشر ، وبين الضار والنافع ذلك العقل الذى يقول عنه سبحانه وتعالى فى حديث قدسى « وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أعز منك ، بك آخذ وبك أعطى ، وبك أحاسب وبك أعاقب » .

ومن الصفات الانسانية ، أو بتعبير آخر من الغرائز النفسية، غريزة الشح فى كل نفس ، فهى طبيعة أصلية فى الانسان تقابلها طبيعة الكرم ، وهاتان الغريزتان هما من الطباع الأصلية فى النفس

البشرية وهما تتصارعان في كل نفس فمن تكون لها الغلبة يكون لها الظهور والبروز ورجحان الكفة •

وغريزة الشح في النفس ليست من غرائز الخير في الانسان بل هي على العكس سبيل من سبل الشر والفساد ، وكثيرا ما يعاني المجتمع الانساني من أهوائها الأهول ، لذلك عنيينا بأن نفرد لها بحثا خاصا كما عني القرآن الكريم بالتنبيه اليها والتحذير منها • على أن القرآن الكريم أفاض في الحديث عن التبذير والاسراف وكذلك في الحديث عن البخل والامسك ، واسكنه أوضح بصفة خاصة هذه الغريزة بأن افرد للكلام عنها فقرة من فقراته وان شئت فقل آية من آياته الينيات ، فقد قال سبحانه وتعالى :

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »

وقد سبق أن تقدم الكلام على البخل والامسك ، وعلى التبذير والاسراف ، بتفسير ما ورد بشأن تلك الخصال مما هو مثبت في مكانه وانما أردنا هنا بالتحديد أن تتكلم عن الشح الذي ورد بالتخصيص في هذه الآية ، فقد قال المنسرون بصدد ما يأتي :

قال أحمد ، حدثنا عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (اياكم والظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) •

وروى الأعمش وشعبة عن عبد الله بن عمر ، حديثا مثل هذا
فى المعنى وان كان يختلف فى النص بعض الاختلاف .

وروى عن أبى هريرة انه سمع رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول (لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف
عبد أبدا ، ولا يجتمع الشح والايمان فى قلب عبد أبدا) .
وروى عن أبى الهياج الأسدى قال كنت أطوف بالبيت فرأيت
رجلا يقول (اللهم قنى شح نفسى) لا يزيد فقلت له : فقال انى
اذا وقيت شح نفسى لم أسرق ولم أزن ولم أفعل . واذا الرجل
عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه . وعن أنس بن مالك عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (برىء من الشح من
أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى فى النائبة) .

هذه بعض الأقوال التى وردت فى (الشح) وقد بقى علينا
أن نذكر ما جاء فى معنى هذه الكلمة لأنها كما قلنا لا تقف عند
معنى البخل كما يظن البعض ، فالشح فى لغة العرب البخل
الشديد ومنع الفضل ، وقال ابن عمر ، ليس الشح أن يمنع الرجل
ماله انما الشح أن تطمع عين الرجل الى ما ليس له وقال سعيد بن
جبير الشح هو أخذ الحرام ومنع الزكاة ، وقيل الشح هو الحرص
الشديد الذى يحمله على ارتكاب المحارم ، وقال ابن زيد (من
لم يأخذ شيئا نهاه الله عنه ، ولم يدعه الشح الى أن يمنع شيئا
من شيء أمره الله ، فقد وقاه شح نفسه) .

هذا هو الشح عافاك الله وأقالك منه ، فانظر الى آية خلة
ذميمة ينزل المتشح به ، والى أى درك عميق ينزل المتصف به .
وقد صدق الحديث الذى تقدم فى قوله « برىء من الشح من
أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى فى النائبة » وكيف لا يكون
كذلك أى وكيف لا يبرأ من الشح من تكون هذه خصاله ، وهى
خصال ان لم تكن هى الكرم المحض فهى الوقاية من الشح ،
وكلاهما على حد سواء .

وفى الواقع أن الشح بمنعاه الذى ورد فى الآية ، أى معناه
الصحيح المتعارف عليه ، انما هو خلة مذمومة مهينة تنزل بصاحبها
الى الدرك الأسفل فى دنياه وآخرته وقد صدق القائل .

« أذل الحرص أعناق الرجال »

وليس كالشح خلة تحمل صاحبها على قبول المهانة ، والرضى
بالدنيئة ان لم يتعدى الأمر ذلك الى اقتراف المحرمات واستباحة
المنكرات لأن الشحيح والعياذ بالله ، يعميه شحه عن كل ماعداه ،
فهو يفرط فى كرامته ارضاء لشحه ويتسامح فى عرضه ارضاء
لشحه ويستمرىء الموبقات ويستهن بالمخزيات والمتديات ، كل
ذلك فى سبيل شحه الذى يزين له كل أولئك والعياذ بالله ،
ومن هنا أفرد القرآن الكريم هذه الآية بالتخصيص على الشح
والتوقى للتنبه منه ، نسأل الله منه الوقاية والسلامة .

الباب الثاني في الشؤون الاجتماعية

- ١ - الخمر مبعث الجرائم *
- ٢ - أثر الشريعة في قطع دابرة الجرائم *
- ٣ - السحر في معتقدات العامة *
- ٤ - الأمر بالمعروف والنهي عن التفرق والاختلاف *
- ٥ - وجوب التثبت في تصديق الأقوال ؛ وقصة بنى المصطلق .
- ٦ - الاستقامة من أسباب السعادة *

الخمير

أم الكبائر ومبعث الجرائم وفساد الأخلاق

تعب العالم من أقصاه الى أقصاه ، فى معالجة مشكلّة الخمر ، وما تسببه من المشاكل بين الأفراد والجماعات ، وما تبعث عليه من الجرائم ، وما تبثه من فساد الأخلاق ، ولم تزل الأمم والحكومات ، قائمة قاعده • قلقة متحيرة ، فى بحث هذا المشكل الأخلاقى الاجتماعى العظيم ، وأكبر الظن أنها لن تزال كذلك الى أن تقوم الساعة ، لأن المرض الدفين ، يظل يزعج صاحبه عالى الدوام حتى يحين استئصاله من أرومته ، والافلن تجدى العلاجات والمسكنات ، الا بمقدار التخدير المؤقت ، حتى اذا ما عاودت الصحوة ، عاودت معها الآلام والأوجاع •

هناك أمة من الأمم رأت أن تحرم الخمر وأمة أخرى رأت أن تخفف من حدتها بتحديد ساعات بيعها ، وغيرها اقترحت الحد من غلوائها بتتقيص وارداتها ومصنوعاتها ، وهناك غيرها وغيرها ، والحركة قائمة والضجيج مستمر ، والأنين مرتفع ، والصراخ يدوى ، والتأوه يسد المسامع ، والتوجع يستطير بالألباب ، كل ذلك تدمرا من الخمر وما تبثه فى المجتمعات من شرور وآثام ،

وعريضة وارتياب جرائم وفساد أخلاق ، وما يترتب على ذلك من اشغال القضاء وقيام المحاكمات وبعث الخصومات • وهناك مؤتمرات تعقد فى أكثر المدن والعواصم ، وشكاوى تتصاعد الى أجواز القضاء ، وتفكير تشتغل فيه الادمغة • كل ذلك للبحث عن وسيلة ويتقى بها شر الخسر ، ورفع مضارها وآثامها والخبرة فى الواقع المشاهد ، هى أم الكبائر ، سواء اعترفت القوانين الوضعية بذلك أم لم تعترف ، وسواء اصطلحت على اباحتها أو على منعها • والعجب العجاب أن القوانين الوضعية تبيحها ، وترخص بها وتعترف بآثامها ، وتسهل سبيل ورودها ثم تتذمر من ضرورها • وتجنى النفقات الرابحة من تجارتها ثم تصرف النفقات الباهظة على مسح آثار جرائمها • فما هذه المتناقضات ، وما هذا الداء العيى ، الذى أعيا نطس الأطباء ، من مفكرى الأمم وقادتها ، وزعمائها ورجالات الرأى والكلمة فيها ، وما هذه الحيرة كلها فى محاولة الاهتداء الى علاج ناجع ، دون الوصول الى هذا العلاج ، أو الاهتداء الى بصيص من النور يفرج تلك الكربة ، ويزيل ذلك الغم •

ان علاج هذه الحالة المؤلمة التى أدت بالمجتمع الانسانى الى تلك الكوارث ، هو علاج لا أقول انه بين ظهرانينا ولا بين أيدينا ، بل هو أقرب الينا بكثير من تلك الأمثلة ، اذ هو أمام أعيننا وهو فى مثل هذا الضوء القوى الساطع الذى نستتير به النسيب ، ولكنه ضوء قوى ساطع حقيقة ، ونظرا لقوته هذه فلا

يبصره الا قوى البصر سليم البصيرة ، أما ضعيفهما فيعشى بصره
وتعشى بصيرته دون رؤياه ، والا فبماذا نفسر وجود علاج حاسم
كهذا أمام الأبصار فلا تهتدى اليه العيون ، الا أن تكون قوة
ضوئه أعشت عنه الأبصار - أعنى الأبصار الضعيفة - كما
ذكرت .

ليتفضل القارىء وهو مأجور مشكور ، وليسألنى ما هو
هذا العلاج الذى أعنيه ، والذى اشدت به ونوهت عنه . وأنا
أجيبه به فى قوله تعالى :

« يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع
للناس ، واثمها أكبر من نفعهما »

وفى آية أخرى : « انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام
رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون »

اذن . ليس هناك من العلاج النافع ، والدواء الشافى غير
الاستئصال والاجتثاث ، وليس هناك من السبل ما يؤدي الى
راحة المجتمع الانسانى منها ، ووقايتها من آثامها وشرورها ، غير
تجريمها والرجوع الى أوامر القرآن فيها . على أن القرآن لم
يعالج ناحية من نواحيها ، وهى ناحية المنع فقط ، دون الاشارة
الى الناحية الأخرى ، ناحية الغنم منها ، بل عالج الوجهين فيها ،
فقال ان فيها اثما كبيرا ومنافع للناس ، فاما ناحية الاثم ، فهى فى
عضيان التحريم ، وفيما يترتب على هذا العصيان من ارتكاب

المحارم واقتراف الآثام ومزاولة الكبائر ، وكل ما تضج
به المجتمعات العالمية التي تبيح الخمر وتشكو نتائج
إباحتها ، وأما ناحية المنافع فهي ناحية أقل ضالة من أن تقاس
إلى جانب تلك الآثام ، بل إن المنافع يصح أن تعتبر فردية بينما
آثامها ومصائبها ، تعتبر آثاما عامة ومصائب جامعة ، فتاجر الخمر
يربح منها والمتسبب في تجارتها قد يثرى منها ، ولكن المضار
التي تصيب المجتمع برمنته من آثامها ومصائبها وشرورها ،
والدماء التي تسفك في سبيلها ومن أجلها ومن النتائج المترتبة
عليها ، والانحطاط الذي يصيب سمعة الأمة من جراء انحطاط
أخلاق المدمنين فيها : ذلك كله مالا يقدر بمال ، وما تقيده في
علاجها الأموال ، ومالا تدرأه أنفس نفائس الدر والجوهر ، ذلك
إلى جانب ما تنفقه الحكومات على جنودها ومحاكمها وقضاتها
ومكاتبها من الذين يختصون بمحاكمة الجرائم التي تكون أمخرة
سببها وعاملها الأول .

والقرآن الكريم ، حل هذه المشكلة بجرأة قلم كما يقولون ،
أو بآية صغيرة من محكم آياته التشريعية ، والناس يهلون هذا
الحل ، ويبكون ثم يتباكون ويضجون ويعولون ، ويصيحون
ويشكون ، ويوجدون الداء ويفتشون عن الدواء ، وهو في
متناول أيديهم وهم عنه لا غافلون بل متغافلون .

لم يبق غير خطتين ، لتتخير الأمم أنبلها وأقومها للسبيل ،
فهذه الخمرة مباحة بترخيصكم ورغبتكم ، ومعاقب على جرائمها

بل وعليها ذاتها في أنظمتكم وقوانينكم ، فاما وقد أبختموها ،
أن تصطلحوا على فوائدها ومنافعها ، وتتواضعوا على ضرورتها
لحياتكم ، وتنفوا عنها كل خبث ودم ، وتصفوها بانها أم الطيبات
وترفعوا العقوبة عن جرائمها وآثامها ، وتعفوا الناس من عقوبة
ما يرتكبون بسببها وفي سبيلها ومن آثارها ، فنحمد لكم هذه
الصراحة ولو كانت خاطئة .

اما هذه الخطة ، واما خطة أخرى ، تقوون فيها أن الخمرة
رجس من عمل الشيطان ، وتتواضعوا على تحريمها ، فتريحوا
أنفسكم من عناء الاشتغال بجريرتها ، وتريحوا المجتمع الانساني
من مكابدة شرورها وآثامها وترحموا الانسانية من جرائمها
وجنایاتها ، وتبروا دينكم القويم بطاعته والعمل به .

سيقول السفهاء من الناس ، هذا كلام يصدق في الخيال ولا
يجرى مجرى الحقيقة لعذر تنفيذه ، فأجيبكم بان عصركم لن
يفضل العصر الذي نزل فيه هذا التحريم ، وأممكم ليست أشد
من الأمم التي صدعت بأمر هذا التحريم .
ولى دينى ولكم دينكم والسلام .

أثر الشريعة في قطع دابرة الجرائم

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى .. »

« ... ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب .. »

تعبت الأمم ، في معالجة هذا الموضوع الخطير ، تبعاً أقص مضاجعها وافترش لأجسادها الهمم والقنادر ، ونظرة سطحية بسيطة ، يلقىها الإنسان على أخبار المجتمعات العامة ، وأنباء الصحف المختلفة ، يظهر له في منتهى الوضوح والابانة ، الهوة السحيقة التي تنحدر إليها الحياة الانسانية ، والغور العيق الذي تنزلق فيه سعادة البشر ، والاختار المفجعة التي تصيب الأخلاق العامة في الصميم ، لا شك أن ذلك كله مبعثه شيء من التهاون في اتباع أقوم السبل لتهديب الحياة الانسانية وكبح جماح النفس البشرية ، ولقد اختط القرآن الكريم ، أقوم السبل التي تحوط سياج المجتمع من عبث العابثين وفساد المفسدين ، فقال تعالى في محكم تنزيله :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ،

الحر بالحر والعبد بالعبد ، والأثني بالأثني ، فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان ، ذلك تخفيف من

رُبِّكُمْ ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم فى القصص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » •

وهذه الآيات البينات ، تشتمل على كثير من معانى التشريع الالهى الذى يجب على الخليقة أن تتبعه وتصدع به • ولسنا الآن فى معرض تبين طرق التشريع فى القرآن الكريم وأحكامه ، فالآيات كثيرة فى موضوعها ، وبعضها نسخ ببعض ، وانما أردنا أن نشير الى الحكمة الالهية الغالية التى وردت فى هذه الآية ، وهى قوله « كتب عليكم القصص فى القتلى » ، ومعنى القصص هو العدل ثم قوله ، « ولكم فى القصص حياة يا أولى الألباب »

أجل ان القصص هو السياج الذى يحول بين الانسانية وبين الوحشية ولولا القصص ، لتساوت البشرية والحيوانية كما أن أبسط تهاون فى تطبيق القصص يؤدي الى مثل تلك الحالة من الفوضى ويجرد الانسانية من أعلى ما تعتز به من العدالة وعرقان الحقوق • والنفس أمارة بالسوء ، ان لم ترتدع عن غيها بوازع قوى من الخوف والسلطان ، قد تسترسل فى غوايتها الى الحد الذى يتعدى ضرره الى المخلوقات الأخرى والى محارم الله ، ومن هنا كانت فكرة العقوبة الرادعة لاصلاح المجتمع وصيافته • ولقد تكلم كثير من علماء الاجتماع ، وعلماء النفس وعلماء القوانين ، أقوالاً كثيرة مختلفة فى تشديد العقوبة على المجرم أو عكسها اذ يعتبر بعضهم أن المجرم كالمرضى يجب أخذه بالمعالجة والتطبيب حتى يبرأ من مرضه أو اجرامه ، ويعتبر بعضهم أن

المجرم كالعضو الفاسد فى الجسد السليم يجب بتره حتى يبرأ الجسم من أذاه • وكثر القال والقيـل فى هذا الموضوع وكثرة استنزفت الشئ الكثير من الجهودات وانتكـير ، مما لـسنا بصدـد استغراضه وانما ساقنا الاستطراد الى الاشارة اليه •

وفى رأينا أن سعادة المجتمع ضاعت بين أقوال هؤلاء ، وأقوال أولئك ، لأن العدالة المطلقة فى الدنيا ، انما هى شئـء مربوط فى مخالف العنقاء ، أو مناط باعناق السعالى • وبحسبنا أن توجد العدالة النسبية فتخفف من شقاء الانسانية وآلامها •

أما لو أريد التماس العدالة الحقـة التى لا يأتـيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها ، فما أقرب السبيل اليها ، وما أذناها منا ونحن عنها صادفون مشيحون • وهى بين أيدينا وتحت أبصارنا • أجل هذا هو القرآن الكريم ، وهذه آياته البينات ، وهو مصدر الحكم العظيمة التى تكفل للمجتمع سعادته فى كل ناحية من نواحي حياته اليومية ، وهذا الذى قصدنا الاشارة اليه فى الآية الكريمة « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » وقد قال فصحاء العرب (القتل أنقى للقتل) •

ويقول المفسرون أن المراد أن تشريع القصاص ، أى قتل القاتل يحتوى على حكمة عظيمة هى صيانة المهج والنفوس من الاعتداء لأن القاتل اذا علم أنه مأخوذ بدم المقتول ، أو على التحقيق اذا علم أنه مقتبول بالقصاص ما أقدم على ارتكاب جريمته ، وانثنى عزمه عن القتل ، وبذلك تحققت حكمة ، ولكم فى القصاص حياة ، بصون حياة المقتول ودمه المظلول •

السحر فى معتقدات العامة

حديث السحر والسحرة حديث ابتدته السنة العامة وفاضت به معتقداتهم فى هذا الزمان ، وربما كان فى كل زمان ، وهو خرافة منتشرة ، خصوصا فى طبقات معينة من الطبقات الدنيا فى كل أمة والمضار الاجتماعية والأخلاقية التى تنشأ من وراء العقيدة فيه والايمان به ، والعمل باوهامه ، انما هى مضار تأصلت فى المجتمع العالمى ونالت من هنائه وسعادته قسما كبيرا بحيث ترتب عليه كثير من الشقاء فى الأسر والمجتمعات .

وقد ورد فى القرآن قوله « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » وقوله « فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد الا بإذن الله » .

ونحن نقول ان السحر فى هذا الزمان خرافة منتشرة ولا تنكر أن السحر علم من العلوم التى كانت معروفة بدليل ما ورد عنه فى القرآن من الآيات وما عرف عنه من القصص والأساطير ، وانما السبب الذى حملنا على أن نقول عنه انه خرافة ، الجهل به فى هذا العصور المتأخرة وما يستغله بعض الدهاة من هذا الجهل وادعاء العلم به ، والتغريب بعقول بعض البسطاء بايهامهم المقدرة

عليه لابتزاز أموالهم والضحك منهم ، وسواء كان الذين يدعونه ويستعملونه ، يفعلون ذلك عن علم حقيقى به أو على سبيل الادعاء ومجرد الكذب ، فهو على كل حال حرام شرعا لما يترتب عليه من نتائج الأذى بين عباد الله ، والتي أشار اليها القرآن فى قوله .
« فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » •

والسحر وان كان فى الواقع من العلوم التى اعترف بها الا أنه شىء مختلف المفسرون والمتقدمون فى شرحه فقال قوم انه مبنى على مجرد الوهم والتخيل والايحاء وقال فريق آخر انه قوامه بعض الرقى والاسماء وقد وردت أقوال كثيرة منها ما هو غريب ومنها ما هو عجيب ولا نرى أن تتعرض لتلك الأقوال لأنه ليس من غرضنا أن نتقدم الى القراء بتعريف ما هو السحر وما هو أصله وما هى أغراضه ، ليس ذلك من همنا ذلك لأنه لا فائدة لهم من ورائه ولا يعنيه فى كثير ولا قليل ، ولأن ما قيل فيه وكتب عنه شىء كثير جدا وحسبنا أن نشير الى الغرض الذى قصدنا اليه وهو تبيين أن السحر من المحرمات وانه يستعمل فى الايذاء والتكيد وما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وان بعضهم يستعمله بسبيل الايهام والتغريب فى حين لا يكون هناك سحر ولا سحرة •

وادعاء السحر هو المشاكل الاجتماعية التى يعانىها العالم اليوم فى كثير من جهاته الهمجية منها والمتمدنة ، لأنه خرافة وجدت لها فى كثير من الأوساط اذهانا تقبلها واذهانا تروج لها

وأذهاناتعيش من ورائها وأذهانا تعتقد بها وهذه الأسبابمجتمعة الى جانب ما يشعر به الانسان من غريزة حب الاطلاع والاستكشاف واكتناء الغيوب الى جانب الأمور الخاصة والحالات التي تكون عليها بعض النفوس كمن له مسافر أو قريب مريض ، أو متطلع الى رزق أو عمل ، أو ما شاكل ذلك من حوائج الناس في كل زمن وفي كل أمة . ذلك كله مجتمعا حمل الناس على الايمان بوجود السحر وبقيمته وترتب على ذلك وقوع مضرات في المجتمع الانساني ، أصابته في كثير من نواحيه ، فبعضها في الجانب الأخلاقي ، وبعضها في الجانب الاجتماعي ، وبعضها في غير هذين الجانبين فكم تهدمت بيوت بهذا الوهم وكم شتت أسر ، واريقت دماء وهتكت أخلاق وهو وهم غريب أكثر ما فيه من القوة انه وهم يصيب المتعرض له كما يصيبه المرض سواء بسواء .

والقرآن الكريم صريح العبارة في الاشارة الى هذه المضار الكبيرة ، في تلك الكلمة البليغة التي صور بها أساس الكيان الاجتماعي ، وكيف ينهار عند (ما يفرقون به بين المرء وزوجه) وكفى بهذه الجملة الصغيرة في مبناها ، الكبيرة في معناها ، واعظا ونذيرا لمن تدبر ووعى .

فلو أن الناس التفتوا الى كلام ربهم ووعوا ما جاء فيه من عظات وعبر ، لأراحوا أنفسهم من عناء المشكلات الاجتماعية

الخطيرة التي يجهنون آثامها ويتردون في حمايتها ، ويضجون
بالشكوى من بلائها وآلامها •

(فائدة) من أراد أن يطلع على ما ورد في موضوع السحر
والسحرة وتفسير الآيات القرآنية التي وردت فيه ، فليراجع
تفسيرى الشيخين البغوى وابن كثير فى المجلد الأول من الصفحة
٤٢٨ الى ٢٧٠ حيث يجد ثمة الدواء الشافى الذى ينفع غلته
ويشبع نهمته • والله أعلم •

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

والنهي عن التفرق والاختلاف

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » •

يقول الله تعالى : « ولتكن منكم أمة – وهى الفريق من الناس ، منتصبة للقيام بأمر الله فى الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر • وقال أبو جعفر الباقر ، قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية ثم قال « الخير اتباع القرآن وسنتى » والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن وان كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة كما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع

فلسانه ، فان لم يستطع فبقلمه ، وذلك أضعف الايمان) وفى
رواية وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل ، وقال الامام أحمد
بسنده عن حذيفة بن اليمان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
(والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو
ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا
يستجيب لكم) *

والأحاديث كثيرة فى هذا الباب ، كما أن الآيات القرآنية
التي حفلت بهذه المعانى السامية التي لا تحصى :

والله سبحانه وتعالى ينهى عن التفرقة والاختلاف لما فيهما من
المضرة العظمى والمعصية الكبرى ، بالمجتمعات الانسانية ، وقد
روى الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن يحيى قال : حججنا مع
معاوية بن أبى سفيان فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر
فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ان أهل الكتابين
افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وان هذه الأمة ستفترق
على ثلاث وسبعين ملة - يعنى الاهواء - كلها فى النار الا
واحدة - وهى الجماعة - وانه سيخرج من أمتى أقوام تتجارى
بهم الا هواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا
منفصل الادخله) والله يامعشر العرب لئن لم تقوموا بسا جاء به نبيكم
يصلى الله عليه وسلم لغيركم من الناس أخرى أن لا يقوم به *

من هذا الذى تقدم يتبين مقدار عناية القرآن الكريم
والأحاديث النبوية بمسألة الدعوة الى الأمر بالمعروف والنهى عن
المنكر وهما خلتان لا ينكر فضلها فى تقويم الأخلاق البشرية
والمجتمعات الانسانية ، وكذلك العناية بمسألة الائتلاف والنهى
عن التفرق ، فليس بمجروح ما فى الجماعة من مصلحة عامة
للجمهور بتوحيد كلمته والتوفيق بين قلوب أبنائه .

وجوب التثبت في تصديق الأخبار وقصة بنى المصطلق

قال الله تعالى في كتابه الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا ، ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » •

هذه آية من القرآن الحكيم ، يحسن بنا قبل أن نتعرض لتفسيرها أن نذكر شيئا من أهمية موضوعها • فهو في نظرنا له من الأهمية والخطر في حياة المجتمعات العامة ، وحياة الأسرة على الخصوص ، ما سنعالجه فيما يلي •

كثيرا ما يحدث بين الناس وبعضهم ، أن يتلقى أحدهم حديثا مفترى تنقله إليه السنة خاستة ، يحمل قرية ذميمة ، فيتقبل ذلك الشخص ذلك الحديث كما يتلقى الوحي المنزل ، فاذا به ينقلب على عقبيه طائشا حاققا ، ساخطا غاضبا ، ويثور بالغضب على من ظنه صاحب تلك القرية ولا يبعد أن يتماسكا أو أن يتطور بينهما الأمر الى شجار أو عراق ، وان شئت فقل سفك دم وانتهاك حرمة

واعتماداً ، وقل في كل ما يسوله الغضب للمرء من شره وجنون ،
والغضب شعبة من الجنون •

ولسنا نذهب مذهب ضرب الأمثال أو تخيل القصص اذا ما
قلنا أن كثيرا من الحوادث الدامية التي تحز في كبد المجتمع
الانسانى ، رالتى كثيرا ما تقوض البيوت وتثل الأسر ، ترجع
فى مجموعها الى كلمات يدسها فاسق لا يرعى واجبا ولا انسانية،
فتنتج له تيجتها المطلوبة من الدس والتفريق ، ولسنا نذهب
مذهب الغلو فى هذا الذى تقوله ، اذ أنه حقيقة واقعة يدركها كل
انسان ويعرفها كل عاقل متمرس بشئون الحياة والمجتمعات العامة
والخاصة ، ولقد درج بعض من لا خلاق لهم ممن لا يعرفون
وازعا من دين أو مروءة ، الى اتخاذ هذه الخطة الحمقاء ، قاعدة
خلقية يتخبطون فى يبداء دياجرها ، ويسيتون الى الانسانية أكبر
اساءة بما يفعلون وهم لا يشعرون ، بل يشعرون ويتلذذوا
بارتكاب الجريمة استجابة لشره النفس المتعطشة الى الدم الآس
واذا شئت أن تعرف قيمة هذا المجرم الذى يتخذ من دماء
الناس تجارة يثرى منها ، أو لهوا يتسلى به ، فلتعلم أن قيمته هى
الفسوق والعياذ بالله فقد وصفه الله به كما ورد فى الآية الحكيمة
التي ثبت تفسيرها فيما يلى :

قال المفسرون :

ان الله تعالى يأمر بالتشبيت فى خبر الفاسق ليحتاط له لئلا يحكم
بقوله فيكون فى نفس الأمر كاذبا أو مخطئا فيكون الحاكم بقوله

قد اقتنى وراءه وقد نهى الله تعالى عن اتباع سبيل المفسدين ،
ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول أية رواية مجهول
الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر •

ولهذه الآية قصة يرد اليها سبب نزولها ، فقد قالوا روايات
كثيرة في موضوعها وأحسنها ما رواه الامام أحمد في مسنده
من رواية ملك بنى المصطلق وهو الحارث بن ضرار بن أبي ضرار
والد ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين •

قال الامام أحمد :

حدثنا محمد بن سابق عن عيسى بن دينار حدثني أبي أنه سمع
الحارث بن ضرار الخزاعي يقول : قدمت على رسول الله صلى
الله عليه وسلم فدعاني الى الاسلام فدخلت فيه وأقررت به ،
ودعاني الى الزكاة فأقررت بها وقلت يا رسول الله ارجع اليهم
فادعهم الى الاسلام وابتاء الزكاة فمن استجاب لي جعلت زكاته
وترسل الى يارسول الله ابان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت فلما
جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الابان الذي أراد
رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث اليه احتبس عليه الرسول
ولم يأتته وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى
ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم كان وقت لي وقتا يرسل الى رسوله ليقبض ما كان
عندي من الزكاة وليس من رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلف
ولا أرى حبس رسوله الا من سخطه فانطلقوا بنا تأتي اليه ، وبعث

رسول الله الوليد بن عقبة الى الحارث ليقبض ما كان عنده فمما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق (أى خاف) فرجع حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان الحارث قد منعنى الزكاة وأرادقتلى، فغضب رسول الله وبعث الى الحارث * واقبل الحارث بأصحابه حتى اذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم الى من بعثتم * قالوا اليك ، قال ولم قالوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث اليك الوليد بن عقبة فزعم انك منعتك الزكاة وأردت قتله * قال رضى الله عنه لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بته ولا أتانى ، فلما دخل الحارث على رسول الله قال (منعت الزكاة وأردت قتل رسولى) * قال لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتانى وما أقبلت الا حين احتبس على رسول الله صلى الله عليه وسلم خشيت أن تكون سخطة من الله ورسوله قال فنزلت الآية « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق نبياً » الى آخره *

وقد وردت روايات كثيرة فى هذه القصة ، وهى قصة بنى المصطلق ، ولكنها كلها فى مجموعها لا تخرج عن المعنى الذى أشرنا اليه ، وختمت أكثرها بأن الرسول صلى الله عليه وسلم غضب من ذلك النبأ وكاد يهزم بغزو بنى المصطلق لما بلغه عنهم من منع الزكاة ومحاولة قتل رسوله فنزلت الآية المتقدمة *

وانما آوردنا تفسير الآية بالنص ، والقصة التي كانت سبب
نزولها لتزيد في توضيح المعنى الذي ترمى اليه تلك الحكمة
القرآنية السامية في ضرورة تبين الأخبار قبل تصديقها ، لما يترتب
عليها من خطورة في حياة المجتمع وفي حياة الأفراد كما أشرنا
اليه في أول الكلام ، وحسبنا أن تنوه من ناحية أخرى بالمعنى
الأدبي الدقيق الذي تشتمل عليه هذه الآية فوق المعنى الاجتماعي
السامي الذي أشرنا اليه . وقديما قيل في الأمثال العامة ، وما
آفة الأنبياء الا رواياتها .

فليتأمل في القرآن من يريد التأمل ، وليتدبره من يتدبره فوق
كل ذي علم عليم .

الاستقامة من أسباب السعادة

قال الله تعالى فى كتابه الكريم :

« وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا
لنفتنهم فيه » .

اختلفت أقوال المفسرين فى تفسير هذه الآية ، فقال بعضهم:
وأن لو استقام القاسطون على طريقة الاسلام وعدلوا اليها
واستمروا عليها « لأسقيناهم ماء غدقا » أى كثيرا والمراد بذلك
سعة الرزق كقوله تعالى « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا
لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » وعلى هذا يكون معنى
« لنفتنهم فيه » أى لنختبر من يستمر على الهداية ومن يرتد
الى الغواية . وقال بعض المفسرين « وان لو استقاموا على
الطريقة » أى طريقة الضلالة .

وسواء كان هذا أو ذاك ، فالشئ الذى لا شك فيه أن
الاستقامة باب من أبواب السعادة وسعة الرزق وأنها الطريق

الموصل الى راحة الضمير وهدى الانسان ، وقد أمرنا الله بها
فى قوله تعالى « فاستقم كما أمرت » والاستقامة على الطريقة
المثلى هى المعنية فى كلام الله ومعنى كما أمرت ، أى كما نزل
عليك فى القرآن من التعليمات بالالتزام بأوامر الله تعالى والالتفاء
بنواهيہ . ولا شك أن اتباع الأوامر الالهية واجتناب محارم الله،
هو معنى الاستقامة المنشودة التى تؤدى بالانسان الى طريق
السعادة وسعة الرزق والى كل خير وفلاح .

الباب الثالث في الشؤون الصحية

- ١ — نظام الحجر الصحي في القرآن .
- ٢ — اعتزال النساء في الحيض
- ٣ — النظافة في الاسلام
- ٤ — نظام فطام الطفل

نظام الحجر الصحي في القرآن

أحدث ما ابتكرته أدمغة المفكرين ، في العصور المتأخرة وفي أرقى الأمم ، في حالات الأوبئة العامة ، التي تجتاح البلاد والعياذ بالله ، هو الحجر الصحي ، أو العزل ، أي عزل المريض أو المرضى في مكانهم ، فلا يدخل اليهم أحد ، ولا يخرج من عندهم أحد ، وذلك تحديد للمرض ومنع من انتشاره وتسرب أوبائه .

(١) وقد يجهل بعض الناس ان هذا العزل بمعناه المتعارف عليه اليوم ، انما هو مأخوذ من القرآن أخذا صريحا لاشية فيه ولا موارد ، وقد يظن بعض الناس ، أن هذا النظام من مبتكرات العصر الحاضر ومن تفكير أهله ورجاله ، وهم مخطئون في هذا الظن ومعذورون بعدم وقوفهم على الحقائق التي اشتملت عليها أسرار القرآن الكريم .

ونحن لا نتعصب للقرآن لمجرد التعصب ، حين نرد اليه كل شيء ، ونهتدى بهداه في كل شيء ، فانما نقول ما نقول بأدلة هي آيات الله البيّنات بحيث لا ندع سبيلا للمواردية أو المكابرة .

«١» لم نجد للمتقدمين رأيا في هذا الموضوع ، ولكن الفرض من آيات ان العزل الصحي هو رأي ناضج وهو من الآراء السديدة المتقدمة التي لم تكن وليدة هذا العصر ، اما مسألة اثبات العدوى فقد تكلم عنها من المتقدمين الاعلام الشيخان ابن تيمية وابن القيم وغيرهما من المحققين وقالوا انها تقع بالن الله ويتناولون حديث « لا عدوى » بانه نفي لا كان يعتقد العرب في الجاهلية من تالين العدوى بطبعها .

اما فرضنا من اثبات هذا الفصل ، فهو ايضا سبق القرآن الكريم الى بيان فائدة العزل الصحي التي ادعى جهابذة هذا العصر انها من وضع الهانم وهي في الحقيقة نعمة من نعم الاسلام .

يقول القرآن الكريم :

« ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا ، ثم أحياهم ، إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » *

صدق الله العظيم ، إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون *

فلنرجع إلى أقوال المفسرين في هذا الموضوع *

اختلف المفسرون في تحديد عدد هؤلاء القوم فقال ابن عباس إنهم كانوا أربعة آلاف ، أو ثمانية آلاف وعن وهب بن منبه وأبي ملك إنهم بضعة وثلاثون ألفا وقال البعض إنهم من قرية تسمى ذاوردان من واسط ، وقيل إنهم من أهل اذرعات ، وأن بلدهم أصيبت بالطاعون ففروا منها وقالوا نخرج إلى أرض ليس بها موت ، حتى إذا كانوا بموضع من الطريق قال الله لهم موتوا فماتوا ، فمر عليهم بعد حقبة من الزمن نبي من الأنبياء فدعا ربه بالحياة لهم فأحياهم *

هذا هو التفسير الذي فسره به تلك الآية جماع المفسرين من السلف ، ثم جاء الحديث النبوي الصحيح الذي عمل به عمر بن الخطاب كما سنرويه فيما بعد ، يقول عن الوباء : « إذا كان بأرضي وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » وتفصيل ذلك أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ،

خرج الى الشام حتى اذا كان بجهة تسمى « سرغ » لقيه من أمراء
أجناده أبو عبيدة بن الجراح ، وأصحابه ، فأخبروه بان الوباء
وقع بالشام فذكر الحديث ثم جاءه عبد الرحمن بن عوف وكان
متغيبا لبعض حاجته فأعاد على عمر ذلك الحديث النبوى الكريم
فحمد الله عمر ، ثم انصرف ، وهو حديث ثابت فى الصحيحين .

من هذه الآية الكريمة ، ومن هذا الحديث الذى فسرهما ،
ومن هذا التصرف الذى تصرفه عمر بن الخطاب نستشف تقديرا
لفهم معنى الآية والحديث ، ونستخرج أكبر عظة وأكبر عبرة .

ومن هذا يثبت بوضوح وجلاء ، أن نظرية الحجر الصحى ،
أو العزل الصحى ، المعمول بها الآن فى أرقى الدول ، وأرقى
الأمم ، والتي تعتبر من نتائج أدمغة رجال العصر الحديث ، انما
هى حكمة الهية نزلت على نبي هذه الأمة منذ حوالى أربعة عشر
قرنا من الزمان ، وقد عمل بها المسلمون فى ذلك العصر أى أنهم
طبّقوها عمليا بموجب هذه القصة الصحيحة الثابتة التى رويناها ،
وبموجب ذلك الحديث النبوى الصحيح الذى رويناها .

فأى فضل لهذا الكتاب الالهى على العالم ، لا على المسلمين
فحسب ، حيث انتفع بما جاء فيه من عظات وبما اشتمل عليه من
أحكام أكثر الأمم الموجودة على وجه الأرض فى القرون الخالية

والحاضرة ، فهل قدر الناس لهذا الكتاب المبين قدره ، وهلا
حفظوه في المهج ، ودسوه في شغاف القلوب واعتزوا به بين
طيات الأرواح وأنزلوه من أنفسهم منزلة السمع والبصر .

لقد صدق أصدق القائلين ، في قوله « ما فرطنا في الكتاب
من شيء » كما صدق أصدق القائلين في قوله « ان الله لذو فضل
على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » .

اعتزال النساء في الحيض

« ويسألونك عن الحيض قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء في الحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » الآية .

هذه مسألة من الوجهة الأولى دينية ، فهي محرمة ديناً ، ومن الوجهة الأخرى صحية ، فهي محرمة طبيياً ، وليس لله منفعة تعود عليه إذا اعتزل الرجل نساءه في الحيض أو لم يعتزل ، ولكن الواقع أن عامة الناس فضلاً عن خاصتهم عرفوا مضرة الحيض وعرفوا أنه أذى فتجنبوه .

فأما من الوجهة الدينية فالإنسان المسلم الخالص العقيدة يسلم لتحريمها تسليماً مطلقاً لأن الله سبحانه وتعالى أعلم بعباده وأعلم بما ينفعهم وبما يضرهم ، وهم على هذه العقيدة سلموا تسليماً مطلقاً بكل أوامره ونواهيه ، ولكن حدث أن الطب في الإسلام وفي غير الإسلام عالج هذه العضلة من ناحيته فاكتشف أن فيها من الفوائد ما لا يحصى ، وأثبت الأطباء أن مخالطة المرأة في الحيض — أعنى مباشرتها — تؤدي بالرجل إلى الموت المحقق ، بما تسببه له من أمراض وبيئة وبيلة ، وأمراض مؤلمة

معذبة ، وليس هذا الرأى مما يعوزه الدليل فهو رأى الطب
والأطباء فى كل مكان وفى كل أمة ، وهو شئ شائع مسلم به
من الجميع . وما على الذين يجادلون فيه الا البحث والاستقصاء

بقى أن ننظر الى الموضوع من ناحيته الدينية ، لنرى الى أى
حد من الشفقة والرحمة ، يسوقنا الدين ويحذب علينا *

فالموضوع كما قلنا ، لا يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى وهو
لا يتعلق بالدين الا من ناحية كونه أمر الهى تجب له الطاعة
والعمل *

أما من ناحيته الأخرى ، فهو موضوع انسانى جليل ، فيه
وقاية كبرى لحياة الناس وأجسامهم من الأوجاع والآلام
والأمراض فاذا تأملنا ذلك جد التأمل ، أمكننا أن نتأمل صورة
مصغرة لمثال من رحمة الله بعباده ، وعطفه عليهم بما يرشدهم اليه
فى محكم كتابه العزيز من وسائل سعادتهم وهنائهم ، وما يدفع
عنهم المكروه والشقاء ، ويجعلهم يعيشون فى حياتهم سالمين
معافين ، أو على الأقل متجنبين الأسباب التى تبعث على شقاء
الحياة وتكدير صفو هنائها بالأمراض والعلل *

والواقع أن الكتاب المحكم ملئ بكثير من الآيات البيّنات
التي تهدى الانسان الى سواء السبيل ، وتشعره بالحذب عليه
من قبل الذات العلية الالهية ، وفى كل أمر من أوامره ، ونهى من
نواهيه ، حكمة قد تستطيع أذهاننا أحيانا أن تفقه أوجه النفع

فيها ، وقد تكل أفهامنا في الكثرة الغالية ، وتضل عن فهم معناها
السامى أو مرماها البعيد ، وليس ذلك ذنب الآيات التي لم تفهمها
ولكنه من موجبات قصور الفهم الانسانى ومحدوديته ، وليس من
لنا القارىء أن نستعير في هذا الباب معنى المتنبي الشاعر المشهور
في قوله :

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته
والذنب للعين لا للنجم فى الصغر

النظافة فى الاسلام

الوضوء خمس مرات فى اليوم — الاغتسال كل يوم جمعة
الاجتسال من الجنابة عند كل وطء — تغيير الثياب .

لا نزن أن هناك ديانة من الديانات ، تحتم النظافة على
معتقياها كما يحتمها الاسلام على معتقيه ، بل هو ذلك على
التحقيق • ويكفى فى هذا الباب أن نذكر من غير أدلة ولا براهين
شروط النظافة فى الاسلام ، وهى كما يراها القارىء شروط
أساسية لاسلام المسلم ، لأنه لا يمكن أن يكون مسلم من غير
صلاة ولا عبادة ولا اطاعة أوامر الله ورسوله • فالاسلام يلزم
المسلم أن يؤدى خمس صلوات فى اليوم واللييلة ، من الفجر الى
العشاء • وفى هذا الوقت المحدود بطلوع الفجر وخلوص العشاء
يتوضأ الانسان خمس مرات غالبا ، غير ما هو ملزم به الانسان
فى السنة من أن يكون دائم الوضوء بما قد يزيد عدد مرات
الوضوء عن ذلك الرقم • واذا أردت أن تعرف ما هو الوضوء ،
فاعلم انه نصف الاستحمام — ان صح هذا التعبير — لأنه عبارة
عن غسل اليدين والمضمضة والاستنشاق بالمياغة لغير الصائم

وغسل الوجه وغسل اليدين الى المرفقين ومسح الرأس بالماء
وغسل الاذنين وغسل الرجلين الى الكعبين ، علاوة على ما يتقدم
الوضوء من سنة السواك أو غسل الاسنان جيدا .

تصور أيها القارئ نظافة هذا الدين الذي يلزم صاحبه الزاما
بان يؤدي هذه العملية التطهيرية خمس مرات في كل يوم ،
وخبرني عن أى ديانة تفرض هذا على معتقياها .

وليس هذا فقط . فهناك غسل الجنابة ، وهو الاغتسال كلما
وطأ الرجل زوجته أو احتلم وهذا ما قد يقع في كل يوم أحيانا
أو مرتين في الاسبوع أو مرة واحدة على الاقل . فيغتسل الرجل
جميعه ويتطهر من الجنابة التي هذه مواقيتها عادة .

ولا تظن أن الأمر وقف عند هذا الحد ، فقد تقول :والأعزب
ما شأنه والدين لم يحمله على الاغتسال ، والجواب أسرع اليك
من لمح الطرف فان الدين لم يفرط في شيء ما ، فلا تنس سنة
الاجتسال يوم الجمعة فهي ليست خاصة بجنابة ولا بتطهير ، وانما
هي عملية من أعمال النظافة يشترك فيها المتزوج والأعزب ، لأنها
سنة الاجتسال يوم الجمعة وكفى .

فاذا أضفنا ذلك كله مجتمعا الى بعضه ، وهو الوضوء خمس
مرات كل يوم والاجتسال في كل يوم جمعة كما هي السنة
والاجتسال من الجنابة كلما وقعت المباشرة أدركت ما قيمة النظافة
في نظر هذا الدين الاسلامي القيم الخفيف .

لقد جاء فى الاثر ما يأتى :

ويستحب لمن جاء الى الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه اليها لما ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل) ولهما عن أبى سعيد رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم) وعن أبى هريرة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حق لله على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام يغسل رأسه وجسده) ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ويتطيب ويتسوك ويتنظف ويتطهر فالسواك أى غسل الأسنان بالسواك سنة ولا بأس من غسلها بما يشبهه مما يؤدى غرض نظافة الاسنان وتطهير الفم لوقايتها من الأمراض وتنظيفه .

وهناك مسألة أخرى وهى مسألة تغيير الملابس المتسخة فقد يظن البعض أن الدين اغفلها ولم يقل فيها شيئاً . ولكن اليك الحقيقة الصادقة .

فى سنن أبى داود عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر (ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته) وعن عائشة

رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس
يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب الثمار فقال (ما على أحدكم ان
وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعه سوى ثوبى مهنته) والمفهوم أن
المراد بذلك أن يغتسل الانسان فى كل جمعة وأن يغير ما عليه
من ملابس مهنته التى تكون قد اتسخت من طوال أيام الأسبوع
هذا هو حكم الاسلام فى النظافة * وهذا حظها منه فليسمع
ذلك من يريد أن يسمع ، وليعلمه من يريد أن يعلم *

نظام فطام الطفل فى تعاليم القرآن

من أسرار الإعجاز القرآنى الكريم ، وهو الإعجاز الذى يبدو واضحا لذوى البصر والبصيرة ، تعرضه لمعالجة أدق شؤون الحياة الخاصة للأفراد والأسر ، مما يزيد المؤمن إيمانا بأن هذا الكتاب منزل من لدن عزيز حكيم ، غليم بأسرار خلقه وبصالحهم لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومن تلك المسائل الدقيقة ، مسألة فطام الطفل الرضيع ، وهى فى نظرنا مسألة هامة لأنها تتعلق بجملة أمور منها العناية بصحة الطفل لذاته الانسانية ، ومنها العناية به بصفته عضوا فى المجموعة البشرية من حيث المحافظة على نمائها وازدهارها ، ومن وجهات أخرى يضيق النطاق عن شرحها بالتفصيل .

يقول القرآن الكريم « فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » .

والقارىء البسيط ، لا يفهم لأول وهلة معنى هذه الآية الحكيمة العظيمة ، فلننقل اليه تفسير المفسرين لها ليكون سريع

الاهتداء الى ضالته فقد جاء فى تفسير الشيخ ابن كثير لهذه الآية ما يأتى بنصه :

(أى فان اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين ، ورأيا فى ذلك مصلحة له وتشاورا فى ذلك واجمعا عليه فلا جناح عليهما فى ذلك ، فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكون ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر ، قاله الثورى وغيره وهذا فيه احتياط للطفل والزام للنظر فى أمره وهو من رحمة الله بعباده حيث حجب على الوالدين فى تربية طفلهما وارشدهما الى ما يصلحهما ويصلحه) •

وجاء فى تفسير البغوى مثل هذا التفسير وقال ان المشاورة هى استخراج الرأى (وتشاور) يعنى مشاورة أهل العلم بهحتى يخبروا أن الفطام فى ذلك الوقت لا يضر بالولد •

وقد عنينا بنقل نص أقوال المفسرين المتقدمين ، نصا حرفيا ، لنثبت بالبرهان القاطع حكمة القرآن الكريم فى هذه المسألة الاجتماعية الصحية الدقيقة ، وتعليقه أمر فطام هذا الطفل الصغير — والفطام بالنسبة له شىء فاصل فى تاريخ حياته ، فقد يؤدى الى السلامة وقد يؤدى الى المرض فالموت — تقول علق القرآن أمر الفصل فى هذه النقطة الحيوية الهامة فى حياة الطفل على التراضى بين الوالدين والتراضى لا يكون الا بعد تفكير وتقدير ، وبعد نظر ، والى المشاورة ، سواء مشاورة الوالدين فيما بينهما ،

أو مشاورة ذوى الرأى والخبرة كما ورد فى التفسير • وتنفيذ
ما يستقر عليه الرأى الصائب فى هذا الموضوع •

وثمة ناحية دقيقة أخرى ، نحب أن نلمع اليها ، ونحب أن
ندفع بها الذين يقولون أن الاسلام جعل المرأة المسلمة كمية مهملة
لا رأى لها ولا قيمة ، نحب أن ندمغهم بهذا النص الصريح الذى
علق أمر الفصل فى مسألة خطيرة هامة على شيئين ، أولهما
التراضى فى قوله تعالى « عن تراض منهما » ومفهوم أن التراضى
أو الاتفاق على موضوع معين ، لا يتم الا بعد تفكير واجتهاد ،
والشئ الثانى ، الذى علق عليه أمر الفصل فى هذا الموضوع
الهام هو التشاور ، بين الوالدين أى بين المرأة والرجل ، والتشاور
لا يكون الا بأعمال الرأى واجتهاد الفكر ، فالقرآن الكريم
يصائب حكمته أبى أن يجعل الفصل فى هذه المسألة الخطيرة
الهامة ، من حق واحد دون الآخر من والدى الطفل ، بل توسع
أكثر من ذلك بضرورة المشاورة ، فقد يحتمل أن يكون التراضى
متعلقا بذات شخصى الوالدين دون غيرهما ، ولكن معنى المشاورة
يحتمل ادخال ذوى الرأى والخبرة فى الموضوع الخاص
باستشارتهما حتى يقضيا ويقضى المشاورون بما هو فى مصلحة
الطفل ، كما يؤخذ ذلك من نص الآية ومن أقوال المفسرين التى
أوردناها •

والقرآن لم يغفل بعد ذلك مسألة أخرى متصلة بهذا الموضوع
فى آية أخرى ، وهى آية كريمة تبيح ارضاع الطفل من المرضعات

إذا تعسر لبن أمه أو أرادت فطامه طلبا للنسل أو لغير ذلك من الأسباب المشروعة وبين ما يجب نحو المرضعات من إعطائهن أجورهن ومعاملتهم بالمعروف وغير ذلك مما هو واجب في عنق الإنسان ومما هو في غير حاجة إلى تعريف أو تنويه .

فليتأمل الإنسان الحصيف ، روعة ما اشتمل عليه القرآن من الحكم النفسية الثمينة وهو يقضى في مواضع لها خطورتها بالنسبة لحياة المجتمع الإنساني وكيف قطع السبيل على كل فساد يخشى تسربه إلى سياج الحياة الإنسانية .

الباب الرابع في الآداب العامّة

- ١ — آداب الاستئذان قبل دخول البيوت .
- ٢ — آداب الاستئذان في الأسرة .
- ٣ — آداب المجالس العامة .

آداب الاستئذان في دخول البيوت وآداب التحية

قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم » • يقول المفسرون في تفسير هذه الآية ما يأتي :

(هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين وذلك في الاستئذان • أمرهم أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده • وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات فان اذن له والا انصرف) •

وظاهر الآية واضح الدلالة على المعنى الذي ترمى إليه ، وهو النهي عن الدخول الى البيوت من غير استئذان ، وقد أشبع المفسرون من السلف الصالح هذا التفسير بحثا ، فقالوا ان المراد منه هو وضع آداب دقيقة عالية لنظام الاستئذان فقد ورد في

الأحاديث وأقوال الثقة من الأئمة ان الرجل لا يجوز له أن يدخل بيتا غير بيته الا بعد أن يستأذن أهله فى الدخول فان أذن له بدأهم بالسلام قبل كل شىء أى قبل الكلام . ومن آداب الاستئذان كما ورد فى الأحاديث انه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا وفى رواية ليلا يتخونهم ، يعنى لا يتهجم حتى على أهل بيته لئلا يلقاهم على حالة يكره أن يراهم فيها أو يكرهون أن يكونوا عليها ، وكذلك وجب الاستئذان فى الدخول على الامهات والاخوات لئلا يكن فى عورة ساعة الدخول) .

ولقد قيد الله عباده بهذه الآداب الأخلاقية لأن فى اتباعها الوصول الى السعادة التامة وتجنب كل سبيل شائك من سبيل المضرات الاجتماعية المؤذية التى قد تؤذن والعياذ بالله بالدمار وخراب البيوت وتقويض الاسر والعائلات ، فالمعروف عقلا أن الرجل فى خلوته والمرأة فى خلوتها قد يجنحان الى ما تقضيه هذه الخلوة من الاستراحة المطلقة فاذا بوغت أحدهما وهو على هذه الحالة بغريب متهجم قد تقع من الحوادث ما لاتحمد عقباها علاوة على ما فى ذلك من المنافاة للادب والأخلاق .

فالقرآن الكريم قد حل هذه المغضلة حلا عادلا كريما بما أمر به من الاستئذان ، حيث دفع به مضرة وحقق منفعة : فليتدبر المفكرون هذه الآراء الحكيمة السديدة ، نفعنا الله بتفهمها والعمل بها .

آداب الاستئذان فى الاسرة

مثال من الأدب الرفيع

قال الله تعالى فى كتابه العزيز :

« يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيما نكم
والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر
وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث
عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم
بعضكم على بعض كذلك بين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ،
وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من
قبلهم ، كذلك بين الله لكم آياته والله عليم حكيم » •

اشتملت هذه الآية على معان رفيعة فى الأدب الاجتماعى
والأخلاق العالية ، لم تصل اليه أرقى الأدمغة المفكرة فى هذه
العصور ، ولا عجب فى ذلك فهذا كلام الخالق فأنى يصل اليه
كلام المخلوق ، والحكم التى تضمنها حكم موحى بها من لدن
عليم خبير ، لا من تفكير أشخاص أو عمل مخلوقين •

لقد أوحى التفكير الى بعض الذين زعموا أن عقولهم بلغت
أقصى مراحل النضوج والذكاء ، أن يصنعوا شيئاً من مثل هذا
النظام الأدبى فى مجتمعاتهم ، ولكنهم اخفقوا كل الاخفاق فى

الوصول من ورائه الى نتيجة حكيمة كهذه التي أشار بها القرآن، ولو اختصروا على أنفسهم السبيل ، وعملوا بمعنى الآية لكفوا أنفسهم مؤونة الجهد والاجتهاد في غير طائل فكثير من الناس يضعون لأنفسهم في أعمالهم ومكاتبهم ، أو في بيوتهم ومساكنهم أنظمة للاستئذان ، وذلك جميل في ذاته اذ أنه يحمل معنى من معانى الأدب والأخلاق ، ولكن عدم التقيد في حالة كهذه بنظام اجتماعى دقيق كالذى أشار اليه القرآن لا يفضى الى النتيجة المطلوبة المنشودة .

يقول المفسرون في صدد هذه الآية الحكيمة ما يأتى :

« هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض ، فأمر الله عباده أن يستأذنهم خدامهم مما ملكت أيماهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال ، (الأولى) من قبل صلاة الغداة لأن الناس اذ ذاك يكونون نياما في فراشهم (والثانية) حين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، أى فى وقت القيلولة لأن الانسان فى تلك الحالة قد يضع ثيابه مع أهله (والثالثة) ومن بعد صلاة العشاء لأنه وقت النوم الطبيعى فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت فى هذه الأحوال لما يخشى أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الحالات الخاصة ، ولهذا قال « ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن » أى اذا دخلوا فى غير هذه الأحوال لأنه قد أذن لهم فى الدخول ولأنهم طوافون عليكم فى الخدمة وغير ذلك ،

ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم ولهذا روى الامام مالك
وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال
في الهرة « انها ليست بنجسة انها من الطوافين عليكم
والطوافات » .

وظاهر الآية ، وظاهر التفسير واضح الدلالة على أن المقصود
منها هو مراعاة الآداب الشخصية في منزل الرجل وبين أسرته ،
أى فيما يخصه بشخصه وفيما يخصه فى أسرته حيث أمر الله
سبحانه وتعالى بالاستئذان فى الحالات التى هى مظنة العورات
وهى حالات واقعة تمام الوقوع فمن ذا الذى ينكر أن الانسان
حين يكون فى فراشه قبل صلاة الفجر ، وحين يخلع ثيابه فى
الظهيرة للقيولة ، وحين يستعد للنوم بعد العشاء ، انما يكون
عورة من العورات ، وموضع ستر واستئذان .

لقد جاءت هذه الآية الكريمة بأرفع مثل لنظام الاستئذان مع
ايراد ملاحظة دقيقة وهى أن هذا الاذن جعل على الذين لهم يبلغوا
الحلم ممن هم فى معية الرجل من أسرته وعلى خدومه الذين هم
طوافون عليه ، أما الأجانب عنه ، فلمهم حكم آخر غير هذا الحكم
أى أن هذا الاستئذان خاص بخدومه ومن هم فى معولته ومن هم
معه فى بيته .

آداب المجالس العامة

الامر بالتفسيح بين الجلوس

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا ، يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » .

قال المفسرون في سبب نزول هذه الآية الحكيمه أنها نزلت في يوم جمعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ في الصفة وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والانصار فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا الى المجلس فقاموا حيال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد عليهم ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فعرف النبي ما يحملهم على القيام فلم يفسح لهم ، فشق ذلك على الرسول فقال لمن حوله من المهاجرين والانصار من غير أهل بدر،

قم يا فلان وائت يا فلان فلم يزل يقيم بعدة نفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والانصار أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف النبي صلى الله عليه وسلم الكراهة في وجوههم فقال (رحم الله رجلا يفسح لأخيه) فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا فيفسح القوم لأخوانهم •

قول : وهذا الذي ذكره القرآن الكريم وشرع فيه انما هو سر من أسرار المجتمعات العامة وما يقع فيها ، وكلنا نعلم أن كثيرا ما تكون جماعات منا في حضرة رجل عظيم أو شخصية فذة ، فيدخل عليها جماعات أخرى فتضن الأولى بمكانها وتستاثر بما كانت فيه من الغبطة بقرب ذلك العظيم والدنو من مجلسه وتمتلك الانانية نفوسهم فيودون ان لو لم يكن أحد من الناس دخل عليهم فعكر على ذلك الاجتماع ، صفوا ما كانوا يجبون الاسترسال فيه من هناء واستمتاع •

وهذه عادة من عادات النفوس الكامنة في غريزتها ، وهي مشاهدة ملحوظة ، والقرآن الكريم حين يقضى فيها بأدب حكيم كهذا ، انما يقضى في مشكلة من المشاكل الاجتماعية التي تخلف في نفوس الناس البغضاء والتنافس ، كما أن القصة التي ذكرناها في سبب نزول الآية ، تمثل ذلك الواقع أبلغ تمثيل ، وتمثل

فضل هذا الرأي الذي سرعان ما أزال من نفوس القوم ما اضطروا
النبي الكريم الى اتخاذه من اجراء سريع يستدفع به حرج
الموقف بين الجالسين عنده والقادمين عليهم *

فلو اتبع الناس هذا السنن القويم ، والرأى الحكيم ، لقضوا
من تلقاء أنفسهم على عادة من أسوأ العادات ولأراحوا ضمائرهم
من عناء التشاحن والبغضاء فى أمور بين القرآن لهم سبل الراحة
فيها * فليفتقه ذلك من يريد أن يفقه ومن فتح الله على سمعه
وبصره *

الباب الخامس في الشؤون الخيرية والإنسانية

- ١ — أنواع البر وشعب الاحسان •
- ٢ — بر الوالدين وطاعتهما •
- ٣ — الاحسان الى اليتيم والمسكين والاسير •

انواع البر وتنظيم الاحسان

القرآن الكريم يدلنا على شعب البر بانواعه
« وآتى المال على حبه ، ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين ،
وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب » .

اجتهد المفكرون فى كل أمة ، فى تنظيم سبل الاحسان ،
وتحديد شعب البر ، وقد تضارب اجتهادهم فى هذا الصدد
وتفاوتت سبلهم ، بحيث أصاب بعضهم أهداف هذا الغرض الانسانى
الجليل ، وأخطأه كثيرون ، بل أخطأته الكثرة الساحقة منهم ، وقد
وردت فى القرآن الكريم آيات لا تحصى فى هذا الموضوع
العظيم الخطير علاوة على ما فرضه الله تعالى من حق للفقراء على
الأغنياء حقا منظما صريحا بايتاء الزكاة .

وهذه الآية التى تنظم الاحسان ، وتبين شعب البر ، هى آية
واضحة بعيدة المغزى ، تقول :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن
البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى

المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل
والسائلين وفى الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون
بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس،
أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

هذا هو نص الآية الكريمة ، أثبتناه ليتصور منه القارىء
الكريم طائفة كبيرة من وجوه البر وشعب الاحسان ومنساجج
مكارم الأخلاق والاستعانة على أمور الدنيا والحض على اتباع
السبل المؤدية لسعادة الانسان .

وابرز ما يتجلى فى هذا النص الحكيم ، هو الترغيب فى
مزيد المعونة من قبل المقتدرين على المحتاجين ، ولكن بأىهم تبدأ
ان وجوه البر كغيرها من الشؤون الأخرى ، متعددة المسالك ،
متشعبة الطرق ولا شك أن التوفيق الى تنظيمها ، توفيق الى
اصابة الهدف المقصود الذى يصيب الفائدة المرجوة وتحقيق
الغاية المتوخاة ، والعكس بالعكس .

وقد بينت هذه الآية سبل تنظيم الاحسان بيانا واضحا شافيا
فبدأت بذوى القربى ، وهذا رأى لا يحتاج صوابه الى تدليل ،
والاقوال والأمثلة فى ذلك كثيرة لا تحصى ، ثم اليتامى وهم أحق
الناس بالرعاية والاحسان بعد ذوى القربى ، ثم المساكين . وهنا
يجدر بنا أن نقف لحظة امام تفسير هذه الكلمة لئلا نلغى الغرض
الشريف المقصود منها ، فقد اختلفت أقوال المفسرين فيها ، فقال

بعضهم أن المساكين هم الذين لا يجدون ما يكفيهم فى قوتهم
وسكنابهم وكسوتهم فيعطون ما تسد به حاجتهم وختهم • وفى
الصحيحين عن أبى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال :
« ليس المسكين بهذا الطواف ، الذى ترده التمرة والتمرثاد
واللقمة واللقتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنا يغنيه ولا
يفطن له فيتصدق عليه » •

ذلك بان الناس ، تواضعوا فى اصطلاحهم ، على اعتبار
المسكين كل فقير سائل يحتاج الى الصدقة والاحسان ، ونسوا
وراءهم من هو أجدر بمعونة المسلمين وحسنة المحسنين من أولئك
الذين وصفهم القرآن الكريم بأبلغ وصف وأسماء ، فى قوله
تعالى « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا
يسألون الناس الحافا » وهم الذين وصفهم هذا الحديث
النبوى الكريم بأنهم « الذى لا يجد غنيا يغنيه ، ولا يفطن اليه •
فيتصدق عليه » •

فالقراآن الكريم ، أوضح فى أجلى بيان • درجات الاحسان
والمستحقين له ، بصورة تكفل السعادة لجميع طبقات البشر •
وتكفل للمحسن اصابة الهدف الذى قصد اليه بتوصيل احسانه
الى مستحقه على حسب درجة عوزهم ، وترتيب حاجتهم الى
الاحسان •

أما الصنف العادى من المساكين والشحاذين المعروفين فى كل
جهة وكل مكان ، فأولئك هم الذين عنتم الآية الكريمة بالسائلين

فقد قال المفسرون ان السائلين هم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكاة والصدقات . « وابن السبيل » جاء في التفسير أن المقصود به المسافر المجتاز الذي فرغت نفقته فيعطى ما يوصله الى بلده والذي يريد سفرا في طاعة فيعطى ما يوصله الى بلده ، والمعنى في جملة يدل على فريق من الناس يكون منقطعا عن أهله أو بلده كالغريب وما الى ذلك وهذه شفقة من الله على عباده ورحمة به من المستضعفين منهم ، الذين يكونون في حاجة الى الاحسان أيا كان وفي أية صورة من صوره .

(وفي الرقاب) قال المفسرون أنهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم ، وقال بعضهم أنه يدخل في هذا المعنى عتق النسمة وفك الرقبة وفداء الاسارى وما هو من هذا القبيل .

والخلاصة أن هذه الآية الجامعة من القرآن ، اشتملت كما قلنا على أبلغ مثال في تنظيم الاحسان وتوجيه شعب البر الى ما هو جدير منها بالاقبال والاحسان ، كما اشتملت على أبلغ مثل في مكارم الأخلاق حيث جاء فيها « والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس وقد مدح الله سبحانه وتعالى المتصفين بهذه الصفات فقال جل شأنه « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

بر الوالدين

طغت على أخلاق هذا العصر ، موجة قوية من الفجور جعلت بعض الأبناء ينظرون الى آباءهم وأمهاتهم نظرات الاحتقار والأزدراء ، بل تعدى الأمر ذلك الحد الى حد أبعد منه امعانا في سوء الخلق والعياذ بالله ، بحيث يقع التعدي من كثير من الأبناء العاقين على والديهم ، وهذا التعدي يكون أحيانا بالسباب البذيء وأحيانا أخرى بالضرب ، والضرب المؤلم الموجه ، وأحيانا ثالثة يكون بالاعتداء الدموي كالقتل ومحاولته وما أشبه ذلك ، نعوذ بالله منه كل العياذ .

لا تكاد الانسانية في أشجع مظاهر همجيتها ، تتصور أن مولودا يضرب والديه ، ولانعتقد أن الانسانية في أشجع مظاهر همجيتها ، تبيح لمولود ، كائنا ما كان ، ومهما أدت الأسباب ، أن يعتدى على والديه اللذين ولداه بالشتم والضرب ، فما بالك بالقتل واسالة الدماء .

فاستمع رعاك الله الى ما يقوله القرآن الكريم ، في هذا المعنى من الآيات الصريحة البينة ، وقبل أن نورد شيئا منها نذكر

اننا لا يمكننا أن نحصى جميع الآيات التى وردت فى الحضر على
بر الوالدين والنهى عن الاساءة اليها بأبسط صور الاساءة •

قال الله تعالى :

« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن
عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما
وقل لهما قولا كريما ، وانخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل
رب ارحمهما كما ربياني صغيرا » •

ونظن أن القارئ الحصيف يدرك قبل كل شىء كون أن الله
تعالى قرن بر الوالدين بافراده بالعبادة ، هذه نقطة هامة خطيرة
فى تبين أهمية بر الوالدين وقيمتة المعنوية كقوله تعالى فى آية
أخرى « ان اشكر لى ولوالديك الى المصير » وننتقل بالقارئ
بعد هذه النقطة الى ما يليها وهو الأمر بالاحسان الى الوالدين
بحيث ترتبت على ذلك شرعية الاحسان اليهما ووجوبه اما يبلغن
عندك الكبر ، وبعد ذلك يأتى الأمر بأن لا تقل لهما أف ولا تنهرهما
وقل لهما قولا كريما ، ونظن أن التأقف هو أبسط معانى الاساءة
وقد نهى الانسان عن أن يوجه الى والديه أبسط معانى الاساءة
التى هى التأقف وأمر أن يقول لهما قولا كريما أى لينا طيبا
حسنا بتأدب وتوقير عظيم كما ورد فى التفسير •

يظن بعض الأبناء العاقين أن الوالدين حين يكبران وتتقدم بهما السن يجب أن يصدعا بأمر مولودهما العاقل الرزين ويجب أن يكونا مخرفين في نظره وأن يكون العقل وسلامة التفكير له وحده ، وفي هذا الكثير من الجهل والغباء وسوء الإدراك وقد حل القرآن الكريم هذه المشكلة العائلية الاجتماعية بهذا الحل الشريف الذى لو اتبعه الناس فى مغداهم ومراحهم لاستراحوا ولكن هيهات فما يتبصر الا أولو الألباب .

الاحسان الى اليتيم والمسكين والاسير

قال الله فى كتابه الكريم :

« ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » •

تقدم الكلام على وجوب الصدقات والزكاة وسائر شعب البر والاحسان ، ولكن القرآن الكريم أفاض فى التنبية الى هذا الموضوع افاضة عميقة تدل على قيمته للمجتمع الانسانى ومقدار فائدته منها •

وقال المفسرون ان الضمير يرجع فى حبه الى الله تعالى أى فى حب الله سبحانه • لدلالة السياق عليه وقالوا ان الضمير عائد الى الطعام أى ويطعمون الطعام فى حال محبتهم له وشهوتهم اليه ، كقوله تعالى « وآتى المال على حبه » وقوله « ان تناولوا البر حتى تنفقوا » •

وروى البيهقى عن نافع ، قال : مرض ابن عمر فاشتبهى عنبا أول ما جاء العنب فأرسلت امرأته فاشتريت عنقودا بدرهم فأتبع الرسول سائل فلما دخل به قال السائل : السائل • فقال ابن عمر

اعطوه اياه . فأرسلت فاشتريت بدرهم آخر فأتبع الرسول السائل فلما دخل به قال : السائل فقال اعطوه اياه فاعطوه اياه . فأرسلت زوجته الى السائل فقالت : ان عدت لاتصيب منه خيرا أبدا ثم أرسلت بدرهم آخر فاشتريت به .

قال « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » فأما المسكين واليتيم فقد تقدم بيانهما ، وأما الأسير فقال سعيد بن جبير والحسن والضحاك ، أنه الأسير من أهل القبلة . وقال ابن عباس كان اسراؤهم يومئذ مشركين ويشهد لهذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الاسارى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء وقال عكرمة هم العبيد واختاره ابن جرير لعموم الآية للمسلم والمشرك وهكذا قال سعيد ابن جبير وعطاء والحسن وقتادة . وقد وصى النبي صلى الله عليه وسلم بالاحسان الى الارقاء فى غير ما حديث حتى أنه آخر ما أوصى به أن جعل يقول « الصلاة وما ملكت ايمانكم » .

وخلاصة الآية وما ورد من الأحاديث النبوية فى معناها ، تبين فضل الاحسان الى المسكين واليتيم والأسير وقد تقدم الكلام فى شعب البر على من يجب عليهم الاحسان من المساكين والسائلين وأبناء السبيل والايتام ولكن هذه الآية زاد فيها الاحسان الى الأسير ، وهو صنف من الناس ، تعوزه الرحمة والشفقة والاحسان لأنه فى ذل الأسر ومحنته ، ومسكنة الذل وفاقته ، فانظر الى القرآن الكريم كيف حافظ على كل ما يشتمل على سعادة الانسان ورفاهية الانسانية فى كل ناحية من النواحي

الباب السادس في فنون الحرب والقتال

- ١ — منع الاعتداء في القتال •
- ٢ — مبادئ الاسلام في السلم والحرب •
- ٣ — درس في السياسة من القرآن •

منع الاعتداء في القتال

أوامر الهية صريحة من نص القرآن

تفنن علماء الغرب ، في ايجاد شتى وسائل السعادة لبني الانسان وهذه مخترعاتهم العلمية المفيدة تنطق بذلك وهي ليست مجهولة بحاجة الى تعريف ، ويكفى أن نذكر على سبيل المثال ما اخترع من أنواع المواصلات ، في البر والبحر والجو ، ومن وسائل الاتصال البرق اللاسلكي والهوائي الذي يطوى المسافات الشاسعة في سرعة الضوء أو بتعبير آخر ، في لمح البصر .

أجل تفنن علماء الانسانية في كل هذه الخيرات وأكثر منها ، لصالح الانسانية ولخدمتها ولسعادتها فهم حقيقيون بكل تقدير ، جديرون بكل ثناء .

ولكن مهلا رويدا .

أجل مهلا رويدا فانه شكر ممزوج بالألم وثناء تغمره الحسرة والأنين .

أعزني سمعك أيها القارئ عافاك الله وكتب لك السلامة ، ولا تغفل عما سألقيه عليك ، ولأنتقل بك الى ميادين القتال

الأوربية فاشهدك فيها ، ما تصطك له أسنانك من الرعب ، وترتعد
له فرائصك من الاشفاق ، أشهدك الانسانية البريئة كيف تصرع ،
أشهدك الأمومة كيف تفجع ، ولا عليك بعد ذلك من دعوى العلم
والعلماء من العمل لخير الانسانية وسعادتها : أشهدك ما ينسبك
برفاهية المدنية ، ويطل أمامك حجة دعواها ، بحيث أحملك على
التصديق بأن هذه المخترعات وقد كشرت عن أنيابها انما تجلت
عن أصل طبيعتها ، وطبيعة العمل الذي اخترعت من أجله ، وهو
مجرد الدمار والخراب ، والايذاء والتكيل . ولك أن تتصور
قسوة العواطف التي تلقى بالمهلكات الجهنمية والعياذ بالله ، على
أطفال رضع ، أو شيوخ هجع ، على زوجات وأمهات وبنين وبنات ،
واخوان وآباء ، وأهل وأصدقاء ، فجأة وبغته ، بغير ذنب البتة
سوى ورود هذه الضحايا على طريق أولئك الظالمين ، عفوا ، كما
ترد أسماء الأعلام فى طريق القوافى . فاذا سألت ما هذا . قيل
لك هى المدنية فى أنبل معانيها ، تريد تمدين هذا الشعب ، أو
ترقية تلك الأمة ، ورحمة الله على المنطق رحمة واسعة حيث دفن
فى رمسه ، وقبر فى جدته .

هذا الموجز المختصر ، هو الذى يقع بين أسماعنا وأبصارنا
بين كل يوم وآخر ، خصوصا فى الأوقات التى نشطت فيها
الحروب بين الأمم القوية والضعيفة ، وما تواردت به مختلف
الأنباء الرسمية عن أعداد الضحايا من الرعايا الأبرياء الآمنين .

لقد أسمعك أيها القارئ ، دعوى المدنية فى هذا الموقف بل
أشهدتك حقيقتها الملموسة بما لا سبيل معه الى النكران ، وما
لا حاجة به الى الدليل ، فتفضل غير مأمور. وعد معى لأسمعك.
رأى الاسلام فى هذه النقطة الحساسة المتوقدة ، وأشهدك من
القرآن الكريم أبلغ مثل وأعلاه ، ولك أن تفاضل بعد ذلك بين
المدنية الدامية ، والجهالة الواعدة ، وتخير لنفسك أنبل الخطتين،
وأقوم السيلين *

ويقول القرآن الكريم :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله
لا يحب المعتدين » *

وليس من غرضنا أن نفسر الأمر بالقتال فى أول الآية ، وإنما
الذى عنانا فى موضوعنا ، هو الشطر الثانى منها ، وقوله تعالى
صراحة وبصيغة النهى الواضح « ولا تعتدوا ان الله لا يحب
المعتدين » وان كان هذا لا يمنع من أن نذكر على سبيل الفائدة،
أن أقوال المفسرين اختلفت فى شرح هذه الآية حيث قال بعضهم
بأنها أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم فى القتال
بالمدينة فلما نزلت كان الرسول يقاتل من قاتله ويكف عن كف
عنه ، حتى نزلت سورة براءة فنسخت هذه الآية بآية أخرى هى
« فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وقال بعض المفسرين ان
المراد فى قوله « الذين يقاتلونكم » انما هو تهيج واغراء بالاعداء
وقد تواردت الآيات الكثيرة فى هذا المعنى *

وارجع الى ما نحن بصدده فى تفسير قوله تعالى « ولا تعتدوا
ان الله لا يحب المعتدين » فنقول أن المعنى ظاهر اوضح من
النهى عن الاعتداء فى أول الآية ثم زيادة التبغيض فيه بقوله انه
لا يحب المعتدين ، وقد زادت الاحاديث النبوية فى تفسير هذا
المعنى وتكريره الاعتداء فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله :

(اغزوا فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا
ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع)
رواه الامام أحمد ومن هذه المناهى ما ذكره الحسن البصرى من
المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأى
لهم ولا قتال فيهم ، والرهبان وأصحاب الصوامع وتحريق
الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة .

يستخلص من نص الآية الكريمة ، وهو نص واضح كما
ذكرنا ، ويستخلص من نص الأحاديث النبوية الواردة فى هذا
المعنى ، ومن أقوال الشراح والمفسرين ، يستخلص من ذلك كله
الاجماع على استنكار الاعتداء فى الحروب وليس بعد كلام الله
تعالى مجال للقول ولا محل للاستشهاد .

نسوق هذا الحديث الى أنصار الانسانية الذين وقفوا
أدمغتهم على اسعادها ، وحسبوا تفكيرهم على هنائها ، واننظر
بعد ذلك الى أى منقلب ينقلبون .

مبادئ الاسلام في السلم والحرب

في مساجلة بين كاتبين : مسيحي ومسلم

وفيما نحن بسبيل تأليف هذا الكتاب ، عثرنا على المقالين الآتين أحدهما كتبه كاتب مسيحي في مجلة الرسالة الغراء ، والآخر كتبه أديب مسلم في عدد آخر من تلك المجلة ، يساجل به زميله الأول ، وكلاهما يرمى الى فكرة متحدة ، ونظرية مشتركة هي تمجيد آداب الاسلام وتعاليمه والاشارة الى انه دين سلم لا دين حرب ، وانه غزا العالم بتعاليمه وآدابه قبل أن يغزوهم بسيفه ، وانه لم ينتض الحسام الا مضطرا بعد أن أعجز في السلم وأبلى في المناظرة •

وقد رأينا ان موضوع المقالين له مساس أى مساس بموضوع كتابنا لاتحاد الغاية واشتراك الفكرة فلم نر بدا من اشراك القراء في تلك الثمرة العقلية الموقفة التي تزيدنا تأييدا فيما نحن بصدده من تمجيد كتاب الله الحكيم ودينه القويم •

المقال الاول

« .. أنا لست مسلما ولكن ذلك لا يمنعني من أن أقول في
الاسلام الحق . ولقد دفعني الى هذا ما شاع بيننا نحن المسيحيين
— عن طريق المبشرين وانكشارية الدين المأجورين — من أن
الاسلام دين كاذب قام على السيف .
وأصارحك أنى كنت على هذا الرأى حتى تبهت الى فضائل
الاسلام .

طريق الرسالة الغراء ، ثم عن طريق القرآن الشريف . لذلك
آليت على نفسى أن أعوض عن عدم اسلامى بنشر الاسلام بقلمى
ولسانى » .

خليل جمعة الطوال

« الاسلام دين بربرى قام بقوة السيف »
« فولتير والخصوم »

بهذه الحجة الواهية ينثال على الاسلام خصومه ليشوهوا
جماله ، وينالوا من روحه الكبرى ، وينتقصوا من تعاليمه السامية
وبهذه الحجة أيضا يتذرع أهل الجهالة والزيغ ، اذ يصمون

صاحب الرسالة العربية بالكذب والشعر والكهانة ، ويدعو
مؤسس ديانة بربرية كاذبة تنافى مبادئها روح الحضارة ،
تعاليمها حائلا دون تقدم المدنية ، ولو أنهم خلوا الى أنفسهم ،
وتفضوا عنها غبار التعصب ، ودرسوا تعاليم الاسلام ، وتدبروا
آياته فى هداة من أغراضهم الذاتية ، لانجابت عن بصائرهم
سدف الأرجاف ، ولانجلي عن قلوبهم خبث الصدور وصدأ
الباطل .

يزعمون أن الاسلام قام بقوة السيف . . ويتمسكون بهذا
الزعم على أنه حقيقة واقعة لا غبار عليها . ولكن فاتهم أن القوة
التي أعزت الاسلام فى بدر ، والقادسية واليرموك ، والتي غزا
بها المسلمون — على قلة عددهم وضعف عدتهم وعتادهم —
العالم ، وأمعنوا فى جهاته الأربع بالفتح والاستعمار ، حتى
وسعت امبراطوريتهم ثلثى الكرة الارضية — لم تكن الا قوة
ايمانهم بعقيدتهم الجديدة ، عقيدة التوحيد بالله وعدم الشرك
به ، تلك العقيدة استمرأوا فى سبيلها النكبات ، وتجشموا
الأخطار والمصائب ، فما لانت قناتهم ، ولا خضدت شوكتهم
ولا هانت قوتهم ولئن قام الاسلام ببضعة أسياف ونفر من الرجال
لقد قاومه أعداؤه المشركون بألاف الصوارم ، وكتائب الأبطال .
وما انتصاره عليهم الا انتصار الحق على الباطل ، وما هزيمتهم
الا هزيمة القوة المادية أمام قوة الايمان الروحية .

تبارك الله •• رجل يقوم ضد أمة ، فكأنه بقوة إيمانه — وهى
كل ذخيرته — أمة بأسرها • فيغلبها حيناً وتغالبه أحياناً ، ثم
ينصر الله عبده ، ويعز كلمته ، فاذا القوم يسارعون فرادى
وجماعات ليستظلوا تحت راية حقه ، وليسترشدوا بنوره ،
ويهتدوا بهدأيته ، واذا محمد رسول الله ، ورجل الحق ، وعدو
الكفر يقف فيهم خطيباً عند باب البيت ليعلن فيهم مبدأ الأخاء
والحرية والمساواة ، فيقول : لا إله الا الله وحده لا شريك له صدق
وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده •

الا كل مأثرة أو دم أو مال فهو تحت قدمى هاتين الا سدنة
البيت وسقاية الحاج • يا معشر قريش • ان الله قد أذهب عنكم
نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء • الناس من آدم ، وآدم خلق من
تراب • يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً
وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم •

تلك هى مبادئ الاسلام السامية التى اهتزت لها أصنام
الوثنية وهياكلها ، بل تلك هى عدة المسلمين التى فتحو بها العالم
والتي لم تغن عنها « يوم بدر جيوشهم اللجة الجرارة وأسلحتهم
الوفيرة المدمرة بمثل هذه المبادئ قام الاسلام يرشد الناس بنور
الهداية وحسن الموعظة ولم يلجأ الى السيف الا دفاعاً عن حوزته ،
واشفاقاً على رسالته ، من أى تصبح مضغة استخفاف يلوكها أهل
الكفر والالحاد مدى العمر • وان شريعة سماوية جديدة قامت
ولم يؤيدها السيف فى انتشارها • أهى اليهودية وقد كانت تأمر

برجم كل خارج على الناموس .. أم هي المسيحية وما زالت
محاكم التفتيش بأقبائها المروعة المظلمة يتردد صداها في الآذان
وترتعد من فظائعها الأبدان . ولم نذهب بعيدا في الاستدلال
والتاريخ مقعم يذكر الكثيرين من ضحايا المسيحية — أو قل على
الاصح انكشارية المسيحية — ومجازرها . وحسبك منها مجزرة
القديس (سان برثلمو) التي قتل فيها ٢٥٠٠٠ نفس ومجزرة
شارلمان بقبائل السكسون التي سالت فيها الدماء البريئة أنهارا ،
وما ارتكبته جيوش فيليب الثاني ملك أسبانيا وحامي دمار
الكاثوليكية في هولندا من الفظائع وضروب التمثيل التي تهتز
لهولها الرواسي ، وتشيب لمنظرها النواصي . وما فعله الامبراطور
فرديناند الثاني وهو من أسرة هابسبرج حين حاول أن يستأصل
شأفة البروتستنتية في المانيا ، فأرسلها اليها جيوشه اللجبة ، التي
أخذت تعمل السيف في الرقاب والعباد ، والنهب في البلاد ،
واختل الأمن ، فأبيحت الأعراض ، وأزهقت النفوس البريئة ،
وخرب خمسة أسداس المدن والقرى الالمانية ، وتناقص عد
السكان فيها ، حتى صار أربعة ملايين بعد أن كان ثمانية عشر
مليوناً .

ولم نذهب بعيدا وفي الأمس تراجع البابا تلك الذكريات
المؤلمة ، فيسكى وينتجب لها ، لأن أهل رومية قد أقاموا (ابرونو
الايطالى) الذي أحرقتة محاكم التفتيش بالقار واقطران ، في

حفل رائع من رجال الاكليروس ، تمثالا عظيما فى المكان الذى
أحرق فيه ضحية لتزمت العصر ، وكفارة عن حرية الفكر .

ولم تكن البروتستنتية على حداثة عهدا لتختلف عن
الكاثوليكية بشيء من حيث تفتيش الضمائر ومخبات الصدور ،
واضطهاد أبطال الحرية الفكرية بالسجن حينما وبالحرق أحيانا ،
قتلك النيران المخيفة التى التهمت جثة (سرفيتوس الاسبانى)
ما يزال مشهدها ماثلا أمام عيني كلفن وهر فى جدته ، وما تزال
تلك الذكرى تنتاش جثته الهامدة ورمته البالية .

لقد اضطهدت المسيحية على اختلاف مذاهبها خلقا كثيرا من
ذوى الحرية الفكرية على حين كان الاسلام على درجة بعيدة من
التسامح ولنا من أبى العلاء المعرى أكبر دليل على ذلك ، فقد
شك هذا الفيلسوف العظيم فى جميع الأديان ، واتهم بالكفر
والالحاد ، ومع كل ذلك فقد عاش آمنا مطمئنا على حياته ، ولم
ينله من الحكومات الاسلامية أدنى أذى مع أنه قد تمادى فى كفره
وشكته لدرجة تكفى للحكم عليه بالقتل والحرق .

ومن الحق هنا أن نسجل أن جميع الديانات حتى الوثنية
منها تأمر بالخير والاحسان وأن المسيحية لم تبغ سفك الدماء
واضطهاد الأبرياء ، ولكن ما العمل وقد اضطهدت هذه النفوس
البريئة باسمها . وذلك ارضاء للنفوس الدنيئة ، والأطماع
السافلة .

لقد قام الاسلام يدعو الى التوحيد ، فأعطى أهل الكتاب الحرية التامة فى اقامة شعائرهم الدينية ومعتقداتهم ، ولم يعمد الى السيف فى اخضاع المشركين وردداهم الى حظيرة الايمان بالله الا اذا أبوا أن يلبوا دعوة الله بالحجة البينة ، والموعظة الحسنة ، واختاروا الحرب •

أفبعد هذا يزعمون أن الاسلام دين كاذب • • ليت شعرى ، أية كذبة تماشى العصر ، وتسائر الزمن ، وتعيش مع الدهر — بين الخصوم — أكثر من أربعة عشر قرناً ، وتنطلى تمويهاتها على حوالى ستمائة مليون من الناس ، وتظل عندهم طيلة هذه الأحقاب موضع الاجلال والاكبار ، تهز قلوبهم الرحمة وأكفهم للخير •

ألا ان الاسلام برىء مما نسب اليه ، فهو دين عربى صادق يدعو الى توحيد الله دون أن يلجأ الى التواء المنطق وغث التأويل • (ولئن فاتنى حظى من النسب ، لن يفوتنى حظى من المعرفة) •

خليل جمعة الطوال

المقال الثاني

مهدة الى الاستاذ خليل جمعة الطوال

ان من الجناية على الحق ، والافتراء على التاريخ ، أن يقول قائل ان الاسلام قد اتشر بالسيف . أى سيف كان يحمله محمد ، وهو الاعزل الذى لا حول له ولا قوة ، الوحيد الذى لا ناصر له ولا معين ، يناله السفهاء بالأذى فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، ويأتمر به قومه ليقتلوه فيفر بحياته الى يثرب .

لقد ظل محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاماً يدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولم يكن له من سلاح غير ثقته بالله وايمانه بأنه على حق ، ولقد لاقى هو وأصحابه فى سبيل هذه الدعوة من ضروب الفتنة والاضطهاد مالا يثبت عليه الا الذين عمرت قلوبهم بالايمان ، واستيقنت أنفسهم من نصر الله .

كان الرسول يوماً يصلى عند الكعبة ، وبينما هو ساجد اذا بعقبة بن أبى معيط ، يظاً عنقه الشريف حتى كادت عيناه تبرزان

وخنقه بردائه خنقا شديدا ، والناس من حوله شامتون ،
حتى أقبل أبو بكر محتدا وخلص الرسول منه وهو يقول :
أقتلون رجلا أن يقول ربي الله .

ولما خرج الى الطائف يدعو أهلها الى الاسلام ، أغرروا به
سفهاءهم فترصدوا له بالطريق وأخذوا يحصبونه بالحجارة حتى
تخضبت قدماه بالدماء .

ولما أبى عمه أبو طالب أن يسلمه اليهم ليقتلوه تعاهدوا على
مقاطعة أوليائه من بنى هاشم ، ودامت هذه المقاطعة ثلاث سنين
لقى فيها هذا البيت الكريم من العنت والارهاق أعظم البلاء .

وعذب عمار بن ياسر وأهله عذابا شديدا ، فكان الرسول
يمر بهم وهم في العذاب ويقول : صبرا آل ياسر ، فان موعدكم
الجنة .

ومن ذلك أن أبا جهل طعن سمية أم عمار بحرية فقضى عليها
فشكا عمار ذلك الى الرسول قائلا : يا رسول الله ، بلغنا لعذاب
كل مبلغ . فقال صلى الله عليه وسلم : (اصبر أبا يقظان ، اللهم
لا تعذب من آل ياسر أحدا بالنار) .

وقد استشهد أفراد هذه الاسرة الكريمة في سبيل الله ، ولم
يبق منهم إلا عمار الذي كان يعذب حتى لا يعي ما يقول .

ومن عذب في سبيل العقيدة بلال بن رباح كان مملوكا
لأمية بن خلف ، فلما اعتنق الاسلام خنق عليه سيده وأمره

بالرجوع الى عبادة الأصنام ، فلم ينصح لأمره لأنه ذاق حلاوة
الايمان ، فأنزل به ألوانا من العذاب : كان يطرحه على الرمضاء ،
ويصهر على صدره دروع الحديد ، ويضع عليه الاحجار الثقيلة
حتى قد ظهره . وهو يهتف دائما : أحد ، أحد ، الى أن أتقذه
أبو بكر فاشتراه من سيده ، وأعتقه لوجه الله .

وكثير غير هؤلاء ممن آمنوا بمحمد في مبدأ بعثته ، كانوا
يلاقون العذاب الهون والبلاء العظيم ، حتى أذن الرسول صلى
الله عليه وسلم لمن ليس له أنصار يحمونه من هذا العدوان أن
يفر بدينه الى الحبشة ، فهاجر اليها جم غفير . واستأذن أبو بكر
في الهجرة اليها فأذن الرسول صلى الله عليه وسلم له ، فلما كان
على مسيرة يومين ، لقيه ابن الدغنة سيد قومه فسأله : أين تريد
يا أبا بكر . قال أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد
ربى ، قال : ان مثلك لا ينبغي أن يخرج أو يخرج من أرضه ، ثم
رجع به الى قريش وأدخله في جواره ، على شرط أن يعبد الله .

فابتنى أبو بكر مسجدا بفناء منزله ، وصار يصلى فيه ويتلو
كتاب الله ، فكان نساء قريش وشبانهم يجتمعون حول داره ،
يستمعون لتلاوته ، ويؤخذون ببلاغة القرآن وروعته . ففزع
القوم وشكوا أبا بكر الى حليفه ، فأغلظ الحليف لأبى بكر فى
القول وقال له : اما أن تستعلن بعبادتك ، واما أن تعيد الى ذمتى
فقال أبو بكر : الى أرد لك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل

فكيف اجتمع هؤلاء الناس على محمد • أبالسيف وهو
أعزل لا يستطيع أن يعصم نفسه • ومتى كان السيف وسيلة
لتكوين العقائد فى النفوس ؟ •

ولماذا باعوه أرواحهم يبذلونها رخيصة فى سبيل دعوته ؟ •
أطمعنا فى مال وهو فقير لا يكاد يملك من حطام الدنيا شيئاً •
ومتى كان للمال هذا السلطان القاهر على العقول والافهام ؟ •

كلا ، لا بهذا ولا بذاك ، وانما بهذا الدين الحنيف الذى
أستحوذ على العقول وأخذ بمجامع القلوب ، وبهذا الكتاب
الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى حين
سمعه ملاً الحبشة من القسس والرهبان خشعت قلوبهم وفاضت
أعينهم وأسلموا لله رب العالمين ، فنزل فيهم قوله تعالى : « ولتجدن
أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم
قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون واذا سمعوا ما أنزل الى
الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون
ربنا آمانا قاتبنا مع الشاهدين »

ولقد ظل المسلمون على هذه الفتنة الطاغية فترة من الزمن ،
حتى اذا استفحل الخطب وعظم البلاء ، شرع الله لهم القتال دفاعا
عن النفس وذبا عن الدين ، فقال تعالى : « أذن للذين يقاتلون
بأنهم ظلموا وأن الله على نضرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم
بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة
ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير » •

كان موقف الاسلام اذن موقفا سلميا فى حروبه الاولى ،
لا يقصد به غير الدفاع عن أهله ، ورد عدوان المعتدين • فلما
استقرت قواعده ، وانتهدت اليه الخلافة فى الأرض ، كان عليه
أن يقف موقفا ايجابيا لحماية المؤمنين والأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر • وهذا ما تشير اليه الآية الكريمة « وأولا دفع الله
الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد
يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى
عزيز ، الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة
وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور » •

وهذا يدل على أن الحرب فى الاسلام وسيلة لدرء المفسد
واقرار السلام ، لا ارضاء لشهوة الفتح والاستعباد واذا كان
الاسلام قد حث على الاستعداد الحربى بقوله : « وأعدوا لهم
ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله
وعدوكم » فانما يرمى بذلك لاطفاء جذوة الحرب فى نفوس
الأعداء ، وهو ما يعرف فى هذا العصر بالتسلح السلمى •

وهذه مبادئه الحربية شواهد ناطقة بعدله ورحمته واحسانه
انظر اليه يأمر بالسلم اذا جنح اليها العدو ، ولو كان جنوحه
خداعا ومخاتلة : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على
الله ، انه هو السميع العليم ، وان يريدوا أن يخدعوك فن حسبك
الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين » •

وما تم فى معاهدة الحديبية ، يدل على مبلغ حرص الرسول
— صلى الله عليه وسلم — على السلم وكرهية الحرب ، فقد رضى أن
توضع الحرب بين المسلمين والمشركين عشر سنين ، فى الوقت
الذى كان المسلمون يتحرقون على القتال ، وينتظرون منه كلمة
واحدة ، يندفعون بعدها كالسيل الجارف صوب مكة ، حيث
ينتصفون لأنفسهم وللإسلام من أولئك الذين أخرجوهم من
ديارهم بغير حق ، فكان الرسول حائلا بينهم وبين ما يشتهون ،
حتى كادت تحدث بينهم فتنة عمياء لولا أن الله سلم .

وكان الرسول يوصى أتباعه دائما فى الحروب بقوله :
(اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كهر بالله ، لا تغدروا ولا تغاوا
ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا فانيا ، ولا منعل بصومعته ،
ولا تحرقوا نخلا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء) .

هذه مبادئ الإسلام فى الحرب ، وهى أرحم بالإنسانية
وأشرف غاية من المبادئ السلمية — ولا أقول الحرية — التى
تطبقها الدول القوية على الأمم الضعيفة باسم المدنية فى هذا
العصر .

واليك هذا الموقف الرائع النبيل ، حين فتح الرسول مكة ،
ومكته الله من رقاب قريش ، وقد وقف على باب الكعبة والناس
من حوله ينتظرون كلمة الفصل : فاما موت واما حياة . فقال
لهم : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ . قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ

كريم • قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء • فكان ذلك سبباً في اسلام
قريش بأجمعها ، وحقن دمائهم ودماء المسلمين •

فالقول اذن بان الاسلام انتشر بالسيف فرية باطلة ، وانما
انتشر الاسلام بالصحة والبرهان ، وبسماحة مبادئه وامتانة أصوله
ولا عجب فهو الذي يقول : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد
من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة
الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم » •

محمد كامل حته

درس فى السياسة من آيات القرآن

يقول بعضهم ان السياسة خداع واحتيال ، وانها اتخاذ السبيل الى الكسب من أى طريق كان ، والظفر بتغليب الرأى من حيثما اتفق ، وقالوا انها أكثر من ذلك امعانا فى الكذب الصراح ، وقالوا فيها أقوالا كثيرة وخطيرة لا حاجة الى استعراضها ويكفى أن نذكر قول الشاعر المصرى حافظ ابراهيم يصف السياسة مخاطبا أحد الزعماء وهو فى طريق المناوضة :

ان مثلوا فدع الخيال فانه
عند الحقيقة يسقط التمثيل
الشبر فى عرف السياسة فرسخ
واليوم فى فلك السياسة جيل
ولكل لفظ فى المعاجم عندهم
معنى يقال بأنه معقول

الى آخر الأقوال الواردة فى هذا الموضوع ، والواقع المشاهد انه كم من عقود مبرمة تقضت بين السياسيين ، وكم من اتفاقات معمول بها فى عرفهم واذا بها بين عشية وضحاها « قصاصة ورق » كما تسميها لغة القوة أو لغة السياسة .

الى هؤلاء نسوق الحديث ، ونقول ليتهم فقهوا من القرآن
الكريم الآية العظيمة المحكمة البينة التي نذكرها فيما يلي :

« وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد
توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون .
ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون
ايمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة » .

وظاهر الآية صريح النص فى أمره تعالى بالوفاء بالعهود
والمواثيق والمحافظة على الايمان المؤكدة ، وتبغيض الغدر
والنكث ، وقد وردت أحاديث لا تحصى فى هذا المعنى ، ثم
ضرب الله مثلا لنقض العهود والمواثيق بالتى نقضت غزلها من بعد
قوة أنكاثا ، ثم اتخذ الايمان وسيلة للخداع والكذب والغش
— تتخذون ايمانكم دخلا بينكم — أن تكون أمة أربى من
أمة ، وهذا هو المعنى السياسى الذى تقصد الاشارة اليه ، وهو
ما يقع بين الأمم فى العصور الأخيرة من ضروب الخديعة حين
تكون أمة أربى — أكثر — من أمة .

وخلاصة ما نريد أن نشير اليه فى هذا الباب ، هو هذا
الدرس الاخلاقى السياسى العظيم الذى ضربه الله لعباده لأنه
يشتمل على صورة للمثل النبيل فى السياسة الصادقة التى توفر
على الأمم سعادتها وتضمن لها هبائها ، والا فما هى قيمة

العهود والمواثيق اذا كانت لا تساوى ما خطت به من مداد
ونقشت عليه من ورق ، وما هو الحاجز الذى يحتجز الأطماع بين
القوى والضعيف ، اذا كانت الايمان دخلا بين الناس أن تكون
أمة أربى من أمة .

وليست بنا حاجة الى استعراض ما تعانیه الأمم الحاضرة فى
كل أصقاع الأرض من ضروب العسف وتقص العهود ونكث
الاتفاقات مما هو شائع معروف ، وما تأدت اليه هذه الحالات من
مخاصمات ومشاحنات ، كاد يمتشق فيها الحسام ويشور فيها
الرصاص .

فهلا تدبر الناس فى كلام ربهم واتنعموا بما فيه من عظات
وعبر وما رسمه لهم فى حياتهم الدنيوية من سعادة وهناء .

الباب السابع في الشؤون الاقتصادية

- ١ — النهى عن التعامل بالربا
- ٢ — حفظ الحقوق بين الافراد والجماعات •
- ٣ — المشاكل القضائية بين المتقاضين

النهي عن التعامل بالربا المضاعف

يقول الله تعالى في كتابه الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا
الله لعلكم تفلحون » •

وقد جاء في تفسير هذه الآية ما يأتي :

« يقول الله ناهيا عباده المؤمنين ، عن تعاطي الربا وأكله
أضعافا مضاعفة ، كما كانوا في الجاهلية يقولون اذا حل أجل
الدين اما أن تقضى واما أن تربي ، فان قضاءه والا زاده في المدد
وزاده الآخر في القدر ، وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل
حتى يصير كثيرا مضاعفا ، وأمر الله عباده بالتقوى لعلهم يفلحون
في الأولى والأخرى » •

قلنا : هذا الذي عابه الله على المرابين من جاهلية العرب ،
في كونهم يفعلون الربا المضاعف ، ثم نهاهم عنه وحرمه عليهم ،
هو بعينه الذي يفعله كثير من كبراء الأمم في العالم اليوم ، فان
كثيرا من المعاملات المادية من تجارية ومالية وغيره لا تقوم الا على
هذا الربا المضاعف •

والواقع أن مشكلة التعامل بالربا بين الأمم والأفراد ، وعلى الأخص الربا المضاعف ، هى من المشاكل الرئيسية بالنسبة للمجتمع الإنسانى حيث كان . وذلك برغم اصطلاح القوانين الوضعية على تنظيم الربا وإباحته فى أغلب أمم الأرض ، والأمثلة على ذلك من الكثرة بحيث لا تحصى ، ومن الأدلة على فساد فكرة الربا وكونها من السبل المؤدية بكثير من المتعاملين بها الى الخراب العاجل أى الى العقاب الدنيوى ، ان كل الأمم التى أباحت الربا حددت التعامل به فى دائرة ضيقة منظمة وما وضعت ذلك التحديد إلا لتدراً عن أفرادها بعض الأضرار الجسيمة التى تنتج عنه ، ولكنها برغم ذلك لم تستطع أن تدفع الأذى الكامل الذى يحيق بالناس من التعامل به ، وكثيراً ما تشغل المحاكم وينشغل القضاة بالنظر فى مشاكل المتعاملين بالربا وعلى الأخص الربا الفاحش الذى تحظره كل الأمم التى أباحت قوانينها الوضعية التعامل بالربا فى الحدود الضيقة التى أشرنا إليها .

وفى الواقع أن الربا يجب أن يحرم وأن يمنع قطعاً طبقاً لما أمر به القرآن الكريم ، والأمة التى تفعل ذلك ، انما تسدى يد الإحسان الى مجتمعها بما تدراً عنه من الأذى الذى لا يقف ضرره عند حد بين الأفراد والجاعات ، لأن كثيراً من النفوس الإنسانية لا يقف بها الجشع عند حد معين خصوصاً تلك النفوس التى غلب عليها الطمع والشح .

فصاحب المال ، يستغل ضعف المحتاج أسوأ استغلال ،
ويتعمد أن لا يقرضه الا بذلك الربا الباهظ • وشبه النفس كما
قلنا لا يقف عند حد ، فيترتب على ذلك أن يزداد الدائن جسعا
فيزيد الربا حيث ينصاع المدين بتأثير الضعف النفسى ، حتى اذا
ما حان وقت السداد كانت هناك ترة مؤكدة فى النفس بين
الفريقين ، فهذا يريد ان يشبع نهمه بتحصيل ما يدعيه وذلك يشعر
اذ ذاك فقط بغبنه وخسران صفقته بأخذه ذلك القليل بما صار
اليه من الكثرة فيشعر فى قرارة نفسه بالحقد والضعينة على
دائنه الاثيم •

وليس أحسن فى هذه الحالة من المعاملة البريئة التى يقصد
بها مجرد وجه الله ، فمن كان ذا مقدرة وميسرة وطلب اليه
القرض البرىء الى أجل وميسرة فله ذاك ، ومن كان لا يستطيع
فما عليه من المغدرة بالتى هى أحسن •

أما ما عدا ذلك فسيل شائك يؤدى الى الخسران والى
ضياع الحقوق واشعال العداوة والبغضاء بين النفوس والقلوب ،
فيما لا طائل تحته ولا غنية وراءه ، والله وراء القصد •

ولقد اكتفينا بهذه الآية من القرآن فى حق الربا حيث وردت
آيات كثيرة لا تعد فى هذا الموضوع ، كلها آيات بنات •

حفظ الحقوق بين الافراد والجماعات

سنذكر في هذا الباب ، أطول آية في القرآن نزلت في حفظ الحقوق بين الأفراد والجماعات . وقد رسمت تلك الآية الحكيمة ، الطريق السوى الذى يجب أن يتبعه الجميع فى معاملاتهم ، لينتفعوا من وراء ذلك بجملة أشياء ، وليدفعوا عن أنفسهم عناء الشر والتقاضى فيما لا طائل تحته . أجل لينتفعوا بحفظ حقوقهم فى معاملاتهم التى لا بد منها ، وليدفعوا عن أنفسهم شر التقاضى وما يفضى اليه من خصومة وضغن ، وتره ودخل .

ولقد عنى القرآن الكريم فى هذه الآية التى قلنا أنها أطول آية فيه ، بأدق مثل كريم ، لأدق مشكلة من مشاكل البشر ، اذ هى ضمنت حقوقهم المالية ، والمسائل المالية فى القديم والحديث ، هى مشكلة المشاكل فى حياة الناس سواء كانوا أفراداً أو جماعات ، فأما الأفراد فكثيراً ما تنشأ بينهم العداوات وتشيع البغضاء بل ولا نذهب مذهب الغلو اذا قلنا ، وترتكب الجنايات والجرائم ، من أجل مسألة مالية أو معاملة تجارية ، والجماعات كثيراً تتوتر

منهم النفوس وقد تنشب الحروب وتقطع أواصر الصلوات ، من أجل مسائل مالية أو مشكلة من مشاكل التعامل • لهذا فقد عنيت آية القرآن الكريم بتفصيل هذه المسألة تفصيلا دقيقا كما تصف الداء وتصف معه الدواء ، بما لم يترك عذرا لمهمل يضيع من حقه ثم ينشده ويكي عليه ، أو يضيع حقه ثم يشير من أجله حربا عوانا لا أول لها ولا آخر •

يقول القرآن الكريم فى الآيه المذكورة :

« يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبغض منه شيئا ، فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احدهما فتذكر احدهما الأخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ولا تساموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وان فعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم » •

أجل • لو قرأ الناس هذه الآية الكريمة من القرآن وتبها
اليها وفطنوا الى ما فيها من حكمة سامية وعملوا بها • انهم لو
فعلوا ذلك لأقفلت دور التقاضى أبوابها بين عشية وضحاها
ولاستراح الناس واستراح القاضى • والا فماذا يفعل القضاء فى
الأمم الحاضرة أكثر من انشغاله بدعاوى الحقوق المدنية حيث
أهمل الناس أمور دينهم وتعاليمه واتبعوا شهوات الدنيا وماتزينة
من الباطل والبهتان والزور •

لقد تضمنت هذه الآية الكريمة عشر مسائل ، كل مسألة منها
مشكلة من مشاكل المجتمع الانسانى فى كل مكان وكل زمان •
واننا لنذكر بالايجاز تفصيل تلك المسائل التى أرشدت اليها الآية
وأوجبتها أو نهت عنها ، صونا للمصلحة العامة بين الأفراد
والجماعات •

أولا — تقول الآية « يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين
الى أجل مسمى فاكتبوه » فهذا أمر للناس يكتبون ما يتقارضون
من الحقوق حفظا لها « وأدنى الا ترتابوا » كما جاء فى آخر
الآية وصونا للنفوس من نزعات الشيطان وما يوسوس به للنفس
الأمارة بالسوء من تزوين الباطل بجحود الحق أو المماطلة فيه •

ثانيا — « وليكتب بينكم كاتب بالعدل » وهذا أمر لمن
يتولى الكتابة بين ذوى الحقوق أن يكون مقسطا فى كتابته فقد
يكون الطرفان جاهلين أو أميين أو أحدهما كذلك والآخر متعلم،

والأمر فى هذه الحالة متعلق بذمة الكاتب وضميره فلا يخون أحدهما الآخر ، ولا يكون مع فريق دون فريق •
ثالثا -- « ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله » إذ أن كثيرا من الناس الذين يحسنون الكتابة ، حين تسألهم أن يكتبوا لك شيئا وأنت أمة جاهل ، يعتذرون بالجهل وعدم المعرفة وهم كاذبون ، وذلك شئء مشاهد ملموس ، فهذا الأمر لهم بأن لا يكتبوا نعمة الله عليهم وان لا يتأبوا الكتابة لمن لا يعرفها منتحلين ذلك الادعاء الكاذب •

رابعا -- « وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبغض منه شيئا » وهذا أمر للمدين أن يملل الحق الذى عليه ويقرره على صحته فلا يبغض صاحبه شيئا وان يتقى الله ربه فى ذلك •
خامسا --- « فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يسل هو فليسل وليه بالعدل » وهذا أمر على ولي المدين أن يقرر الحق الذى هو فى ذمة صاحب الولاية عليه اذا كان ذاك مجنونا أو معتوها أو ضعيفا ، وان يقرره بالعدل من غير بغض •

سادسا -- « واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احدهما فتذكر احدهما الأخرى » وهذا أمر صريح بضرورة الاستشهاد فى مثل تلك الأحوال ، ولا تنكر قيمة الشهادة ونفعها وقد أفسح الله لعباده فجعل الشهادة برجلين فاذا لم يتيسر فبرجل وامرأتين إذ أن المرأتين تقومان مقام الرجل فى الدين الإسلامى فى جالتي

الاستشهاد والتوريث والحكمة فى ذلك ظاهرة أجل من أن تخفى
وقد ذكرتها الآية فى قوله تعالى وذلك أن تضل — تسي —
احدهما فتذكر احدهما الأخرى وذلك لما هو معروف عن طبيعة
المرأة وضعفها عن الرجل ، على أن النقطة الجديرة بالملاحظة هنا،
هى أن الذى يقرر هذا الكلام فى حق المرأة ، هو الخاق العظيم
الذى خلق الجنسين من ذكر واثى ، والذى هو أعلم بسرماخلق
وبطبيعة خلقه فلا داعى لفضول المتحذلقين الذين يقولون بمساواة
المرأة بالرجل فى جميع المهن والأعمال •

سابعاً — « ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا » وهذا أمر صريح
لمن يتولون الشهادة بين طرفين دائن ومدين ، أن لا يتقاعسوا عن
تلبية أداء واجب الشهادة اذا ما دعوا الى أدائها اقراراً للحق
وصوناً لحقوق الناس وهو أمر له قيمته وخطره فى حض من
يتولون الشهادة على عدم الاحجام والمبادرة الى تقرير ما يعلمون،
وقد جاء فى حق الشهادة آية أخرى فى غير هذا المكان من
القرآن نعرض لها فى محلها ان شاء الله •

ثامناً — « ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى أجله
ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا الا أن
تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا
تكتبوها » وهذا أمر كريم فيه نهاية الارشاد والسداد ، اذيقول
سبحانه وتعالى لا تسأموا ولا تستهينوا أن تكتبوا أى شىء قل
أو كثر دفعا للريبة فيما بينكم ودفعاً لما يترتب على الريبة من

مخاصمات وشحناء وبعضاء ومقاضاة الا اذا كانت المعاملات مقبوضة ليس فيها نسيء ، فهي فى هذه الحالة لا يضر فيها عدم الكتابة وذلك هو اعدل لكم وأصلح ، وهذه الفقرة من الآية جمعت اسمى معانى الاخلاص وحب الله لعباده حين يرشدهم الى تجنب أبسط ما ينتج منه الضرر لهم •

تاسعا — « وأشهدوا اذا تبايعتم » وهذا أمر من الله لعباده بأن يستشهدوا على ما يتبايعون منعا لما قد يقع بين طرفى البائع والمشتري فى مستقبل أمرهم من ظنة أو نكران أو جحود تؤدي بهما الى المخاصمة أو الشر •

عاشرا — « ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم » أى اذا كان الكاتب أو الشاهد على حاجة أو معذرة وهما فى هذه الحالة من خدام الانسانية والحق ، فلا تجب مضارتهما أو اكراههما على ما لا يستطيعان ، وقد قضت حكمة الله أن يدفع عن الكاتب والشهيد هذه المضارة فى مقابلة ما أمرهما به فى مقدمة هذه الآية من الامتثال فى قوله « ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله » وفى آية أخرى تحض على عدم كتمان الشهادة •

وفيما يلى نذكر بعض الأحاديث التى تؤيد ما جاء فى هذه الآية •

ففى الحديث من رواية سفيان بن عيينة عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أسلف فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم وأجل معلوم) وفى حديث آخر (من كتب علما يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار) *
وقد وردت أحاديث كثيرة فى مثل هذه المعانى كما وردت أقوال قيمة لطائفة من أئمة السلف الصالح ، وحسبنا الإشارة إليها اذ شرحنا معنى الآية القرآنية التى هى ليست فى حاجة الى وضوح وليس فيها من ابهام * .

ونرى قبل أن نختم هذا الباب أن نذكر آية أخرى من القرآن الكريم هى تنمة لهذا الكلام وللآية التى سبقتها وهى قوله تعالى :

« وان كنتم على سفر ولم تجدوا كتابا فرهان مقبوضة ، فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى أوتمن أمانته وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليهم . » .

وهذه الآية كما قلنا ، هى تنمة لما سبق الكلام عليه ، فاذا كان المتدائنان على سفر ولم يجدا كتابا يكتب لهما أو وجدا الكاتب وتعذرت أسباب الكتابة أو ما الى ذلك من الأحوال ، فرهان مقبوضة * فاذا توقرت الثقة بالأمانة بين الطرفين لأن الله سبحانه وتعالى لا يريد الحرج على عباده فيكفى تلك الثقة أن تقوم مقام الكتابة والشهادة وانما على المؤمن أن يؤدى أمانته

وهذا أمر عليه من الله ومع هذا فالله سبحانه وتعالى الذى هو أعلم بصعير العباد وبدخيلة نفوسهم وخائنات صدورهم قدم الكلام فى الآية الكبرى فقال : ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا • فهو خير عباده فى تصرفهم بعد أن قدم لهم أخلص معانى النصيح والارشاد وأسامها •

أما قوله ولا تكتموا الشهادة أى لا تخفوها ولا تجحدوها ، فقد قال ابن عباس وغيره : شهادة الزور من أكبر الكبائر وكتمانها كذلك ، أى أن شهادة الزور تعادل كتمان الشهادة ، وفى هذا ابلاغ ومن يكتمها فانه آثم قلبه أى فاجر مذنب ، وهذا كقوله تعالى « ولا تكتم شهادة الله انا اذا لمن الآثمين » وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولو بها فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الأ كان بما تعملون خبيرا » وهكذا قال هنا « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليهم » •

فهذه الآيات المحكمة التى تحض على اداء الشهادة وعدم كتمانها ودفع التهييب فى ادائها مهما كان موضوعها وموضوع الذين يدخلون تحت طائلتها ، ندرك مقدار السعادة الآلهية التى رسها الله لعباده بتقرير كل ما يتعلق بأدق شئون معاملاتهم فى حياتهم الدنيوية فيما بينهم وبين بعضهم سواء كانوا أفرادا أو جماعات ، والله بصير بعباده •

المشاكل القضائية فى المحاكم

وبين المتقاضين

ومن الظواهر الاجتماعية فى كل بلد بل فى كل بقعة من بقاع العالم ، وفى كل زمان من الأزمنة ، وقوع المشاكل بين المتقاضين بحيث تغص المحاكم ودور الحكومات ، بهذا النوع من الخصومات وتعنى به التقاضى فى الخصومات المدنية والحقوق ، والمسألة فى هذه الحالة لا تتجاوز أحد أمرين بحال من الأحوال : وهى اما أن يكون هذا الخصم محققا فى دعواه والآخر مبطلا ، وأما أن يكون العكس فى حين أن كل واحد من الطرفين المتقاضيين يزعم لنفسه الحق ، ويدعى أنه فى جانبه ، وقديما قال الشاعر :

لو أنصف الناس استراح القاضى
وبات كل عن أخيه راض

فلو أنصف الخصمان المتقاضيان ، لكانت منهم الحكومة العادلة والقول الفصل ، ولاستراح القاضى كما قال الشاعر .
والمشاهد الملموس أن الخصومة بين المتقاضيين لا تقف عند حلدهما ولا تقتصر عليهما ، خصوصا فى البلدان الراقية حيث ،

يعمد كل فريق الى اناية شخص يدافع عنه وهو المعروف بالمحامى
فى الاصطلاح العام . ومما لا شك فيه أن كل محام فى طرفى
الخصومة انما يمثل رأى موكله ، ولا شك أن أحد الطرفين
المتقاضيين على حق والآخر على باطل ، فيترتب على ذلك أن
يكون أحد المدافعين يدافع عن حق والآخر يدافع عن باطل وتلك
نتيجة معقولة لهذا المنطق المرتب ، لا نتيجة له سواها فما هو
المعنى المستفاد من حالة كهذه .

لا شك أن هذه مشكلة اجتماعية كبرى لها خطورتها فى حياة
الأمم وأخلاقها ، ويمكن للقارىء أن يذهب مع الخيال قليلا ،
فيتصور لو أن المجتمع الانسانى خلا من مشكلة كهذه تعتبر من
أمهات المشاكل التى تقض مضاجع الملايين من بنى الانسان ،
كلما أشرقت شمس أو غرب نهار .

والقرآن الكريم عافاك الله ، واجه هذه المعضلة مواجهة
صريحة ، وحلها حلا صريحا جيدا لوفقه له المسلمون ، وتبها اليه
المؤمنون ، لتلمسوا معنى من معانى السعادة الحقيقية ولا رتاحوا
الراحة الكبرى ولكن هيهات .

جاء فى القرآن الكريم ، فى هذا الموضوع ما يأتى :

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام
لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأتم تعلمون » .

والآية الشريفة ، واضحة التفسير ، بينة المرمى ، وقد قال
المفسرون فى شرحها أقوالا كثيرة ، نجتزئ ب بعضها فيما يلى :

عن ابن عباس : هذا فى الرجل يكون عليه مال وليس عليه
فيه بينة فيجحد المال ويخاصم الى الحكام وهو يعرف أن الحق
عليه وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام ، وقال جمهوره من السلف
الصالح : لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم ، واتماما للفائدة نذكر
أن قضاء القاضى فى هذه الحالة لا يعتبر حجة تسيخ للظالم ابتلاع
حق المظلوم ، وإنما هو مجرد حكم دنيوى أداه اليه اجتهاده فيما
مثل أمامه من أدلة ان صحيحة وان زائفة ، فلا يعفيه ذلك من
عذاب الله ، وان نسوغ له فى الظاهر الاستيلاء على حق غيره
والاعتداء على مال سواه .

وتأييدا لذلك نذكر أنه وزد فى الصحيحين عن أم سلمة أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إنما أنا بشر وإنما يأتينى
الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له ،
فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من نار فليحملها أو
ليذرها) .

والشاهد الملموس فى كل بيئة وكل مجتمع ، أن الناس كثيرا
ما يتخاصمون من أجل المعاملات المادية ، وتختلف الحالات عن
بعضها من ناحية وجود الاثبات والمستندات أحيانا ، والاعتساف
على الذمة والشرف أحيانا أخرى ، فتكون النتيجة المحتملة ، هى
الادلاء بالأموال الى الحكام ، والحاكم يقضى فى حكومته بما

يراه أمامه من أدلة الاثبات والنفي ، ولا بد أن يقف أحد المتقاضين
فى موقف الصادق والآخر فى موقف الكاذب ، خصوصا مايجره
المتقاضيان فى سبيل تأييد دعواهما أحيانا من شهادة الزور وما
اليها حيث تتضاعف الآثام وترتكب الجرائم •

ذلك هو سر قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل
وتدلوها بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم
وانتم تعلمون » •

وليتصور القارىء مايقع أحيانا من الجرائم الدموية والاصابات
فى الأنفس من جراء حالات كهذه مشاهدة ملموسة ، تتناقل
الصحف أنباءها وتتجاوب صداها فى كل بقاع العالم •

ليتأمل القارىء ، وليتدبر •

الباب الثامن فصول متفرقة في الشؤون العامّة

١ - الشعر والشعراء في رأى القرآن •

٢ - مجموعة من المواعظ والأحكام •

حكم القرآن في الشعر والشعراء

كثرت أقوال الناس في الشعر والشعراء ، وفي النص الوارد في القرآن بشأنهم ، واختلفت هذه الأقوال ايما اختلاف ، فأحل الشعر بعضهم ، وحرمه آخرون ، ويدللون لك على هذا بقوله تعالى في القرآن « والشعراء يتبعهم الغاؤون » ويقفون بك عند هذا الحد من الآية ، وذلك على غرار ذلك الذي يقول لك : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة » * ثم يقف فيعكس المعنى المطلوب *

وقد حملتني هذه النظرة على تتبع ما جاء في القرآن الكريم عن الشعر ، وعما ورد فيه من الأحاديث وأقوال المفسرين ، فخلصت من ذلك الى النتيجة الآتية :

يقول الله تعالى في كتابه الكريم :

« والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم ترون أنهم في كل واديهمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا واتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » *

وهذه الآية صريحة المعنى واضحة الغرض ، ولكن اليك
أقوال المفسرين الثقة في موضعها •

جاء في تفسير الشيخ ابن كثير ما نصه :
كان الشاعران يتهاجيان فينتصر لهذا فقام من الناس ولهذا
فقام من الناس ، فانزل الله تعالى الآية •

وقال الامام أحمد حدثنا قتيبة عن ابي سعيد ، قال بينما نحن
نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرج اذ عرض شاعر
ينشد ، فقال صلى الله عليه وسلم (خذوا الشيطان ، لأن يمتلىء
جوف أحدكم قيحا خيرا له من أن يمتلىء شعرا) •

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في كل واد يهيمون ،
أى فى كل لغو يخوضون ، وقال الضحاك فى كل فن من فنون
الكلام وكذا قال مجاهد وغيره • فان الشعراء يتبجحون بأقوال
وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، فيتكثرون بما ليس لهم ، ولهذا
اختلف العلماء رحمهم الله فيما اذا اعترف الشاعر بما يوجب حدا
هل يقام عليه الحد بهذا الاعتراف أم لا ، لأنهم يقولون ما لا يفعلون
على قولين •

وقد ذكر محمد بن اسحاق ومحمد بن سعد فى الطبقات
والزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة أن أمير المؤمنين عمر بن
الخطاب رضى الله عنه استعمل النعمان بن عدى بن نضلة على
ميسان من أرض البصرة وكان يقول الشعر ، فقال :

الا هل أتى الحسناء ان خليلها
بميسان يسقى فى زجاج وختم
اذا شئت غنتى دهاقين قرربة
ورقاصة تحدو على كل مبسم
فان كنت ندمانى فبالا كبر اسقنى
ولا تسقنى بالاصغر المتلثم
لعل أمير المؤمنين يسوءه
تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ،
قال : أى والله ليسوءنى ذلك ، من لقيه فليخبره أنى قد عزلته ،
وكتب اليه خطابا بعزله ، فلما قدم الى عمر بكته بهذا الشعر فقال
والله يا أمير المؤمنين ما شربتها قط ، وما ذاك الشعر الا شىء طمّح
على لسانى ، فقال عمر أظن ذلك ولكن والله لا تعمل لى عملاً أبدا
وقد قلت ما قلت • والمراد بهذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم
الذى أنزل عليه القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر ، لأن حاله مناف
لحالهم من وجوه كثيرة كما قال تعالى « انه لقول رسول كريم ،
وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا
ما تذكرون تنزيل من رب العالمين » •

وقال محمد بن اسحاق عن ابن أبى عبد الله مولى تميم
الدارى قال لما نزلت (والشعراء يتبعهم الغاؤون) جاء حسان بن
ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك الى رسول الله صلى الله

عليه وسلم وهم يكون قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية
أنا شعراء ، فتلا النبي صلى الله عليه وسلم « الذين آمنوا وعملوا
الصالحات » قال : أتمم ، وذكروا الله كثيرا قال أتمم ، وانتصروا
من بعد ما ظلموا قال أتمم رواه ابن ابي حاتم وابن جرير من
رواية ابن اسحاق • وقد وردت أحاديث متشابهة في هذا المعنى •

وجاء في تفسير قوله تعالى « وانتصروا من بعد ما ظلموا »
قال ابن عباس يردون به على الذين كانوا يهجون به المسلمين وقد
ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان
ابن ثابت (أهجهم — أو هاجهم — وجبريل معك) وقال الامام
أحمد حدثنا عبد الرازق عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن
أبيه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل قد أنزل
ففي الشعراء ما أنزل فقال الرسول صلى الله عليه وسلم (ان المؤمن
يجاهد سيفه ولسانه والذي نفسى بيده لكان ماترمونهم به نضح
النبل » •

النتيجة

والنتيجة المستفادة من معنى الآية الشريفة ، ومن الأحاديث النبوية الكريسة ، ومن أقوال المفسرين ، هي أن الشعر مثله مثل غيره من الأعمال يثاب المرء على الصالح منها ، ويعاقب على المسيء فيها ، وهذا هو القانون الطبيعي لكل أمر ، إذ أنه يحتمل الوجهين وجه الخير ووجه الشر ، فالشعر الذي يحتمل ناحية الخير هو الشعر المباح ، والذي يحتمل ناحية الشر هو المحظور .
وجاء في تفسير الشيخ البغوي لهذه الآية ما نصه :

قال أهل التفسير : أراد شعراء الكفار الذين كانوا يهجون النبي صلى الله عليه وسلم وذكر مقاتل أسماءهم مما لا داعي لسرده هنا ، ويتبعهم الغاوون يقصد الرواة الذين كانوا يجتمعون لسماع ذلك الهجو ويتناقلونه في كل مكان وورد عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاة وابن رواحة يمشى بين يديه ويقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله
اليوم نضربكم على تزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خيله

فقال له عمر يا ابن رواحه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حرم الله تقول الشعر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (خل عنه يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح النبل) .

وروى من طريق عبد الواحد المليجي بسنده الى عدي انه سمع البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان : (اهجمهم - أو هاجمهم وجبريل معك) وورد عن عائشة أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان بن ثابت منبرا في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول الرسول (ان الله يؤيد حسان بروح القدس ما ينافح أو يفاخر عن رسول الله) وورد عن عائشة انها قالت (الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح فخذ الحسن ودع القبيح) وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان من الشعر لحكمة ، وقال الشعبي كان أبو بكر رضى الله عنه يقول الشعر وكان عمر رضى الله عنه يقول الشعر ، وكان على رضى الله عنه أشعر الثلاثة وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان ينشد الشعر في المسجد ويستنشده فروى انه دعا عمر بن أبي ربيعة المخزومي فاستنشده القصيدة التي مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر
غداة غد أم رائح فمهجر

فأنشده ابن ربيعة القصيدة الى آخرها •

وورد عن عائشة انها قالت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (اهجوا قريشا فانه أشد عليهم من رشق النبل ، فأرسل الى ابن رواحة فقال اهجهم فهجاهم فلم يرض فأرسل الى كعب بن مالك ثم أرسل الى حسان بن ثابت فلما دخل عليه قال حسان قد آن لكم أن ترسلوا الى هذا الأسد الضارب بذنبه ، ثم أدلع لسانه فجعل يحركه فقال (والذي بهشك بالحق لأفرينهم بلساني فرى الاديم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تعجل فان أبا بكر أعلم قريش بأنسابها وان لى فيهم نسبا حتى يخلص لك نسبي فأتاه حسان ثم رجع فقال يا رسول الله قد خلص لى نسبك والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين ، وقال :

هجوت محمدا فأجبت عنه

وعند الله فى ذلك الجزاء

هجوت محمدا برا تقيا

رسول الله شيمته الوفاء

فمن يهجو رسول الله منكم

ويمدحه وينصره سواء

وجبريل رسول الله فينا

وروح القدس ليس له كفاء

وفى تفسير هذا التحديد ، نستخرج الطريق السوى الذى رسمه القرآن الكريم للصورة التى يجب أن يكون عليها الشاعر الاسلامى وللمواضيع التى يجوز له أن يطرقها ، ومفهوم أن المقصود من ذلك العمل على ما فيه مكارم الأخلاق وما يدعو الى العمل الصالح ، وينهى عن السيئات ، أما الأبواب الأخرى التى تعود الشعراء أن يلجوا فيها ويخوضوا عباب تلك البحور السحيقة فمنهى عنه ومستقبح خصوصا ناحية المهاجاة والعياذ بالله والخوض فى الاعراض واتباع أرذل الكلام وأشنعه والسباب بالباطل والمديح الكاذب والنفاق والمراءاة والهيام فى كل ذلك هو المشنوء فى نص القرآن وهو ما يتنافى مع كرامة الشعر والشعراء ، ومن يتبع ذلك فيكون قد حقت عليه الآية الكريمة فى شطرها الأول ، كما أن من يتجنب ذلك يكون من الذين اتصفوا بالشرط الثانى من تلك الآية •

فلنتخيل أن الشعراء اتبعوا نصيحة القرآن الشريف وعملوا بما جاء فى الآية التى نزلت فيهم فماذا نجد • نجد صورة رائعة للأدب العربى غير الصورة الموجودة اليوم ، أجل كنا نجد الأذنب مرسوما فى غايته السامية خلوا من كل ذام ومستقبح ، أما ولم يفتن الكثير من الشعراء الى تلك الصورة التى رسمها القرآن الكريم للعاية السامية التى يجب أن يتبعوها ، فقد حقت عليهم كلمة الله ولا حول ولا قوة الا بالله الا من عصم ربك ، من الذين آمنوا وعملوا الصالحات •

مجموعة من المواعظ والاحكام

إيتاء الحقوق الى مستحقيها — النهى عن التبذير —
صرف المحتاجين عند المعذرة بالقول الحسن — النهى عن الشح
والاسراف —

هذه آية واحدة من الآيات الكثيرة التى حفل القرآن الكريم
بأمثالها وقد جعلت طائفة من الأحكام التى تكفل السعادة لأبناء
المجتمع العالمى لو أنهم تفقهوها وتدبروا ما جاء فيها وعملوا به .
وهذا نص تلك الآية الحكيمة الجامعة :

« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر
تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه
كهورا واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم
قولا ميسورا ، ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل
البسط فتقعد ملوما محسورا » .

فأما الكلام على إيتاء الحقوق الى مستحقيها من ذوى القرابة
والرحم ومن يليهم من المسكين وابن السبيل والسائل وما الى
ذلك ، فقد تقدم القول عنه فى باب آخر من أبواب هذا الكتاب

فلا داعى الى تكرار الحديث بالتفصيل فيه وحسبنا الاشارة اليه
لأن الآيات كثيرة وحفيلة بأمثال هذه المعانى النبيلة ، وتكرارها
انما هو للمناسبات التى نزلت فيها ولانه يدل على مقدار النصح
الالهى الكريم لعباده باتباع الطرق المؤدية الى سعادتهم فيما
بينهم وتحملهم على تجنب كل ما يعود عليهم بالمضرة والخسران
وتشتمل الآية على النهى عن التبذير ، والتبذير علة من علل
المجتمع الانسانى لأنه داء عضال فى كثير من بنى الانسان ،
يقابله داء الشح فى كثير من الناس ، وقد وردت الآيات الحكيمة
كثيرة فى هذا الصدد ، وحسبنا أن نشير الى قوله تعالى «والذين
إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا» فكم من أسرة تشتت شملها ،
وكم من بيوت خلت على عروشها وكم حوادث مؤلمة زلزلت كيان
مجتمعات كثيرة سببها كلها واحد ، هو التبذير ، خصوصا اذا
كان المبذر رب أسرة يعولها فاذا طاح عنها خلف لها الشقاء
والبؤس ، وقد نهى الله عن التبذير وبغضه الى عباده أشد
التبغيز حيث قرن المبذرين بأخوة الشيطان والعياذ بالله .

ومن المسائل التى حفلت بها هذه الآية الكريمة ، مسألة صرف
المحتاج عند المعذرة بالقول الحسن ، فى قوله تعالى « واما
تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا
ميسورا » أى اذا سألك أقاربك ومن أمرك باعطائهم وليس
عندك شئ وأعرضت عنهم لفقد النفقة فقل لهم قولا ميسورا ،
أى عداهم وعدا بسهولة ولين ، وهكذا ورد فى تفسير ابن كثير

رواية عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ،
وفى هذا من مكارم الأخلاق ما فيه لأن المشاهد أن كثيرا من
الناس ، جلهم ان لم تقل كلهم يتقاعسون عن أداء مثل هذا
الواجب الخطير ، وياليتهم حين يفعلون ذلك يصفون الموضوع
بالحسنى بل انهم يصفونه بالشراسة وسوء الخلق .

فانظر الى أدب القرآن الحكيم كيف الزمنا بهذا الالزام حتى
لا نخرج شعور غيرنا من المحتاجين والمعوزين فلا تقضى لهم
حاجتهم ولا نحسن اليهم بالقول الحسن . وتشتمل الآية بعد
ذلك على النهى عن الشخ والاسراف ، فى قوله تعالى «ولا تجعل
يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما
محسورا» والنص واضح التفسير ، ولكننا ثبت فيما يلى أقوال
المفسرين فيه .

يقول الله تعالى آمرا بالاقتصاد فى العيش ذاما للبخل ناهيا
عن السرف « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك » أى لا تكن
بخيلا منوعا لا تعطى أحدا شيئا ، « ولا تبسطها كل البسط »
أى ولا تسرف فى الانفاق فتعطى فوق طاقتك وتخرج أكثر من
دخلك « فتقعد ملوما محسورا » وهذا من باب اللف والنشر
فيقصد ان بخلت يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك كما
قال زهير :

ومن كان ذا مال فيبخل بماله
على قومه يستغن عنه ويذمم

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه فتكون
كالحسير وهو الدابة التي عجزت عن السير فتوقفت ضعفا وعجزا
فانها تسمى الحسير مأخوذ من الكلال كما قال تعالى « فارجع
البصر هل ترى من فتور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك
البصر خاسئا وهو حسير » أى كليل *

وخالصة معنى الآية هو النهى عن الشح الذى هو البخل
والامساك عن ايتاء الحقوق لمستحقيها من الصدقات وغيرها من
أنواع البر والمساعدات والنهى عن الاسراف الذى هو مدعاة
الفقر والعجز والافلاس *

فليتأمل هذا النص الحكيم من ينشدون السعادة فى دنياهم
فى ترتيب دخلهم وخرجهم ، وترتيب القيام بما هو مفروض عليهم
نحو اخوانهم من ذوى قرباهم فى النسب والاسلام ، وبما هو
مفروض عليهم نحو أنفسهم ، ونختم هذا الباب بالحديث النبوى
الوارد فى الصحيحين الذى يقول : ما من يوم يصبح فيه العباد
الا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما اللهم اعط منفقا
خلفا : ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا *

الفهرس

صفحة	الموضوع
٧	تمهيد

الباب الأول في الشئون الأخلاقية ١٧ - ٣٦

١٩	النهي عن الظن السوء والفيبة
٢٢	الأمر بالحسنى
٢٤	تحريم السخرية والاستهزاء
٢٧	النهي عن الغضب وما يجبر إليه
٣٠	مكارم الأخلاق
٣٣	النهي عن شح النفس

الباب الثاني في الشئون الاجتماعية ٣٧ - ٦٠

٣٩	الخمر مبعث الجرائم
٤٤	اثر الشريعة في قطع دابرة الجرائم
٤٧	السحر في معتقدات العامة
٥١	الأمر بالمعروف والنهي عن التفرق والاختلاف
٥٤	مشكلة اجتماعية خطيرة
٥٩	الاستقامة من أسباب السعادة

تابع الفهرس

صفحة

الموضوع

الباب الثالث في الشئون الصحية ٦٠ - ٧٨

٦٣	نظام الحجر الصحي في القرآن
٦٧	اعتزال النساء في الحيض
٧٠	النظافة في الاسلام
٧٤	نظام فطام الطفل

الباب الرابع في الآداب العامة ٧٩ - ٨٨

٨١	آداب الاستئذان قبل دخول البيوت
٨٣	آداب الاستئذان في الاسرة
٨٦	آداب المجالس العامة

الباب الخامس في الشئون الخيرية والانسانية ٨٩ - ١٠٠

٩١	انواع البر وشعب الاحسان
٩٥	بر الوالدين وطاعتها
٩٨	الاحسان الى اليتيم والمسكين والاسير

تابع الفهرس

صفحة

الموضوع

الباب السادس في فنون الحرب والقتال ١٠١ - ١٢٤

- ١٠٣ منع الاعتداء في القتال
١٠٧ مبادئ الاسلام في السلم والحرب
١٢١ درس في السياسة من القرآن

الباب السابع في الشئون الاقتصادية ١٢٥ - ١٤٢

- ١٢٧ النهى عن التعامل بالربا
١٣٠ حفظ الحقوق بين الافراد والجماعات
١٢٨ المشاكل القضائية بين المتقاضين

الباب الثامن فصول متفرقة في الشئون العامة ١٤٣ - ١٥٦

- ١٤٥ الشعر والشعراء في راي القرآن
١٥٢ مجموعة من المواعظ والاحكام